

أسرار الضمائر

الأستاذ عبدالحق فاضل

خطورة الموضوع :

تبدو صيغ الضمائر وكأن كلا منها عنصر بسيط لا يقبل التجزئة ، كالجوهر الفرد : الذرة . لكن الذرة جزؤها أخيرا ، وأي تجزئة مثيرة لاغطة . كذلك الضمائر يمكن إخضاعها لتجزئة لا تقل إثارة ولغطا ، في عالم اللغة . ويخيل لنا أن تعجير الضمائر ، الذي نحن بسبيله الآن ، سوف ينسف من عالم اللغة مساحة أكبر مما نسفته القنبلتان الذريتان من مساحة اليابان ، وأعمق مدى ، وأكثر تشعبا وانتشارا في مختلف الجهات .

كننا تطرقتنا الى موضوع الضمائر في كلمة بعنوان « لمحات من التأثيل اللغوي » - في العدد البارح من « اللسان العربي » - غير أن الموضوع من الخطورة والغرابة والامتاع بحيث وجدنا تلك « اللمحات » التي لا تشفي الغليل ابعدت للتعطش الى مواصلة البحث والاستزادة منه تعمقا واستقصاءا . وكلما تمادينا فيه تعمنا زادت النفس له تفتحا وعليه امتيالا ، وزادنا البحث عطاء وحسن جزاء .. كأنه المنجم السخي من الذهب كلما أوغلت فيه حفرا زادك مكافأة .

وإذا بالبحث في الضمائر يتكشف لنا عن اسرار عجيبة حقا ، ويمزق الحجب عن مخبات لا نرانا مغالين إذا قلنا انها مذهلة .

ما خرافة نون الوقاية ؟ .. ما سر التثنية والجمع السالم ؟ .. من أين جاءت جركات الاعراب ؟ .. ولام التعريف ؟ .. والثنون ؟ .. كيف تميزت الأريات دون

الساميات بأفعال الكينونة في الجملة الاسمية ؟ .. بل من أين نبعت الضمائر واسماء الإشارة .. في الأريات؟.

هذه الاسئلة جميعها - نعم جميعها - يعطينا درس الضمائر العربية الجواب الشافي عنها - وعن غيرها - لأول مرة في تاريخ علم اللغة .

وإذا بهذه الضمائر السحرية تضرب بأصولها بعيدا في ماضي اللغة ، وتمتد فروعها وتتغلغل بعيدا في مختلف أرجاء جسم اللغة كأنها العروق الدموية تمدد بنسج الحياة .. حتى لا تكاد تخلو جملة في العربية ، أو بناتها الساميات ، والأريات ، من أثر لتلك الضمائر أو بقية من رواسبها .

وإذا بالحقائق المتفجرة التي تجبينها بها دراسة الضمائر تزلزل اللغات وتذرو الكثير من قواعد علم اللغة وبديهياته التسليمية ، في الريح .. وتفتح لنا آفاقا من المعرفة وطرائق البحث لم تكن بيال انسان .

وصفوة القول ان موضوع الضمائر هذا أخطر موضوع لغوي عرض لنا حتى الآن ، ولعله أخطر موضوع لغوي على الإطلاق .

وها نحن نزجي القول الى القارئ الكريم في هذا البحث الطويل العريض بما يمكن من إيجاز ومسا يتبغى من إيضاح وتعليل .

عناصر الضمائر :

إذا نحن استقرينا الضمائر وتناولناها بالتحليل وجدناها - منفصلها ومتصلها - تتألف من عناصر أولية ثلاثة هي : الهمزة (ا) ، والنون (نا) ، والتاء (تا) .

أما الحروف الأخرى التي نجدتها في بعض الضمائر فليست بالاثيلة فيها ، وإنما هي زائدة أو مبدلة . فالحاء في (نحن) زائدة حشرت بين النونين ، والهاء في (هو) ، هما) وغيرها مبدلة من الهمزة ، والميم في (هم ، انتما) وغيرهما مبدل من النون ، والكاف في (عندك ، رايتكم) وغيرهما مبدل من التاء . وسوف يتوضح هذا شيئا فشيئا مع استرسالنا في الحديث ، فلا حاجة بنا الى التوكيد عليه والتبسط فيه الآن قبل التحدث عن الضمائر نفسها ، ولا سيما اننا كنا قد خضنا في الموضوع بعض الخوض في المقال الأنف الذكر .

الهمزة

إذا فوجيء الإنسان بما يثيره - وخصوصا ما يوجعه - كوخزة أو لسعة ، صاح تلقائيا : (أ) . ويمكننا ان نسمي هذا الصوت « همزة التنبيه » .

وقد لاحظ الإنسان الإقدم أنه إذا صاح (أ) انتبه له الآخرون ، كما لاحظ أنه يتنبه هو أيضا إذا سمع أحدا يقول (أ) . ففطن بعد زمن لا نعرف مداه الى أن بوسعه ان يستعمل همزة التنبيه هذه (اراديا) بمعنى « التنبيه » أي استلفات نظر الغير اليه . لهذا نعتقد انها استعملت أولا للنداء ، فما النداء الا تنبيه .

ومن همزة التنبيه تطورت (هاء) التنبيه التي عرفها النحاة وصدق حدسهم في تسميتها ومعرفتها وظيفتها ، في مثل : هذا ، ها أنتم ..

النداء :

ان همزة النداء ما زالت موجودة في العربية ، بنفسها كما لفظها الناطق الاول : (أ) ، أو مبدلة ياء : (يا) . والواقع ان الحرفين كليهما مستعملان في الفصحى للنداء منفردين ومجتمعين : آ ، ا ، يا ، أيا . وهذه الأخيرة وردت مرخمة بصيغة : (أي) أيضا .

وان كانت همزة النداء قد زالت من الدارجات في المشرق وحلت محلها الصيغة الياثية (يا) فانها ما زالت مستعملة في المغرب ، وكان أول ما سمعناها في الدار البيضاء من رجل ينادي صاحبا له على الطوار الأخر من الشارع : آ أحمد .

على أن اختلاف عادات النطق من تغيير حركات اللفظة أو حروفها جعل بعضهم ينطقها (أو - 0) كما في بعض اللغات الأوربية . ومما يدل على عروية

هذه الهمزة المضمومة ان بعض المغاربة كذلك يستعملونها الى جانب الهمزة المفتوحة ، وطالما سمعنا المساس (حارس العمارة) ينادي ولده بأعلى صوته : أو ابراهيم ، كما في الإنكليزية والفرنسية تماها : O. Ibrahim .

وأما في الفارسية فهي (أى - ay) العربية بذاتها ، المرخمة من (أيا) .

ومن النداء بالهمزة نشأ الاستفهام بها أيضا : (أ) ؟

لغة الاشارات :

وقد كنا نوهنا - في المقال السابق - بأن العلماء يعتقدون ان البشر بدأ التخاطب بالاشارة . وقد وجدوا قبائل في بعض القارات ما زالوا السى أوائل هذا القرن يتخاطبون بالاشارات حتى لتتعطل عندهم لغة الكلام في الليل ما لم يجدوا ضوءا يستأنفون فيه مطارحة الاشارات . ولعل بعضهم هذه القبائل ما زال على ذلك حتى اليوم .

كذلك يعمد الطفل الاصم الى الاشارات يعبر بها عما يريد وما يكره قبل ان يظن ذوهه أحيانا الى انه اصم .

على أن الطفل السوي أيضا يفعل ذلك قبل أن يبدأ الكلام النطقي . بل لقد وجدوا حتى القروء تعمد الى الاشارات تعبر بها عن بعض ما تريد .

لهذا يبدو لنا ان الإنسان العربي مزج لغة الصوت بلغة الضوء فأخذ يقول (أ) لينبه الآخرين اليه ويشير الى نفسه يعني : (أنا) ، أو يقول (أ) مشيرا الى مخاطبه يعني : (أنت) ، أو مشيرا الى شخص آخر أو شيء ما يعني : (هذا ، ذاك ، هو ..)

الضمير العام

ومع توالي الاجيال رسخت الهمزة في الأذهان بهذا المعنى ، أي بهذه المعاني جميعها : أنا ، أنت ، انتم ، هذا ، ذاك ، هو ، هي ، هم .. مما أدى الى ترك اشارة اليد . وقد ساعد على ذلك من غير شك حلول الظلام كل ليلة ، فاستغنى الإنسان عن اشارة اليد اضطرارا واكتفى بالصوت : آ . ويتعبير أدق ان الإنسان استعمل صوت (أ) ضميرا عاما لاداء جميع معاني الضمائر واسماء الاشارة .

رواسب التنبيه والاشارة :

ونجدها في الانكليزية بمعنى نحن (وي - we)
وبمعنى أنتم (يو - you) تقابلها في الفرنسية
(فو - vous)

اما في اللغة الام - العربية - فلم تبق الهمزة
ضميرا او شبه ضمير الا في أوائل الضمائر : أنا ،
انت ، أنتما ، الخ .. وأوائل بعض الافعال كصيغة المضارع
المتكلم (افعل) ، وصيغ الامر : (افعل ، افعلني ، الخ)
.. وبعض صيغ الافعال المزيدة مثل : انتعل ، افتعل ،
استفعل . وقد يستبعد القارئ ان هاته الهمزات هي
همزة التنبيه البدائية ، فلنترك هذا الان حتى يأتي
اوانه وبرهانه .

لكن الهمزة انما تطالعنا كثيرا في العربية بعد ان
انقلبت هاءا . وبسبب اختلاف الجماعات في نطق
الحركات فتحا وضما وكسرا نطقها بعضهم (ها)
وبعضهم (هو) وبعضهم (هي) .. وهي موجودة بهذه
الصور الثلاث في العربية ، منفصلة ومتصلة .

ففي حالة الانفصال نجد (ها) اداة للتنبيه في مثل:
هاؤم اترؤوا كتابيه ، ها انتم اولاء ، هاذا (هذا) ..
وكأنها أفضى تماديهم في استعمالها على هذا
النحو لغرض التنبيه الى اهمال استعمالها ضميرا
منفصلا .

ونجد (هو) ضميرا للغائب في العربية مقابل (او)
في الفارسية . اي ان هذه الصيغة الهمزية الفارسية
اعرق ، او أفصح ، او اعرب ، او ما شئت ان تقول ..
وتوجد (هو) في الانكليزية بنفس النطق (هو -
who) بمعنى : الذي .

وأما صيغة (هي) فتخصصت في العربية بالانثى .
ونعتقد انها كانت تعني الذكر اول الامر ، بدليل انها
ما زالت تعني الذكر في الانكليزية (هي - he)
اي : هو ! يضاف الى ذلك انها ما زالت في العربية
ايضا تعني الذكر ضميرا متصلا اذا سبقتها الياء مثل:
اليهي (اليه) ، فيهي (فيه) .. وفي الاضافة من قبيل :
في دارهي (داره) .

وأما في حالة الاتصال فنجد الصيغ الثلاث
(ها ، هو ، هي) في العربية في مثل : منها ، عندهو
(عنده) ، عليهي (عليه) .

النون

يطالعنا النون في الضمائر العربية : أنا ، نحن ،
انت (للمخاطب والمخاطبة) ، أنتما ، انتم ، انتن ، هن .

ويلاحظ ان الانسان ما زال في كل مكان على
ما يظهر ، يشنع الكلام في كثير من الاحيان باشارة
يده الى نفسه او مخاطبه او غيرها مع قوله : أنا ،
أو أنت ، أو هو .. خصوصا في حالات التأكيد
والانفعال . والانفعال هو الذي يرد الأدمي الى عهوده
الاولى من تصرفاته الفطرية البدائية ، مما يؤدي
ان الانسان قد مارس لغة الاشارة دهورا مديدة ،
حتى أصبحت فيما يبدو غريزية فيه .

ومن عجب ان الأدمي العربي لم يحتفظ باشارة
اليده وحدها مع الكلام بل انه ما زال يحتفظ بأداة
التنبيه نفسها مع الضمائر نفسها بالاضافة الى
اسم الاشارة ايضا ، في بعض التعبيرات مثل : ها انا ذا ،
ها انتم اولاء ، ها هي ذي ..

وان كانت (ها) تؤدي معنى خاصا في هذه الامثلة
مانها فقدت وظيفتها تماما في اسماء الاشارة مثل :
هذي ، هؤلاء .. فني وسعنا ان نقول : ذي ، اولاء ..
دون حاجة الى هاء التنبيه ، وخصوصا ان اسماء
الاشارة الدالة على البعيد مجردة فعلا من هذه
الهاء مثل : ذلك ، تلك ، اولئك .

فواضح ان اداة التنبيه واشارة اليده كلتيهما من
رواسب العهود اللغوية الاولى ، وان اسم الاشارة
وحده يعني عنهما .

ضمائر الهمزة :

أصبحت الهمزة ضميرا عاما كالذي قلنا ، ثم
اخذت تتطور لفظا ومعنى حتى ندر وجودها بمعنى
الضمير في العربية ، وانما نجدها اقرب الى صورتها
البدائية الاولى وبمعناها الضميري في بعض
الاعجيبات ، وتهنأ منها هنا الآريات :

نجدها تعني (اننا) في الانكليزية بصيغة
(آي - I) ، وفي الاسبانية بصيغة (يو - yo)
في بعض اللهجات وبصيغة (جو - jo) في الفصحى ،
وبصيغة (جه - je) في الفرنسية . أما في الايطالية
فنتنطق بكسرة تليهاضمة (ايو - io) ، وربما كانت
منها (ايكو - ego) باللاتينية . وهذا الضمير في
الصينية - ويا للعجب : (وو - wo) !

ونجد الهمزة تعني (هو) في الفارسية بصيغة
(او - ū) وفي التركية بصيغة (أو - o)

ونراه ضميرا متصلا لجبع المتكلم في مثل :
نظرنا ، دارنا ، نعمل ..

أما في الاعجيبات فنجده مثلا في اللاتينية (نوس) —
(nos) : نحن = في الفرنسية (نوس) — (nous)
وينطق (نو) . أما في الصينية فهو (ني) — (ni)
بمعنى أنت .

وفي الفارسية نجد النون في كثير من الضمائر
ايضا منها (آن) : هو ، لغير العاقل او (ذلك) للعاقل
وغيره .. وفي (آنان) : هم ، اولئك .. وفي (من —
man) : أنا .. وفي (اند — and) : هم ،
(ضميرا متصلا) ..

أما منشأ هذا النون في اللغة فلا نعرفه على
وجه اليقين ، لكننا نخاله من انفاء الطفل حين يقول :
دادادا .. تاتاتا .. نانانا .. وغير ذلك .

ويبدو أنه اتفق قدوم شخص عند قول احد
الاطفال : ماما .. وقول غيره : بابا .. وقول ثالث :
دادا .. وقول رابع : نانا .. فتخصصت الاولى مع الزمن
بمعنى الام ، والثانية بمعنى الاب ، والثالثة بمعنى
الاخ (بلغة العراق مثلا ، وهي تنطق بالفارسية :
داداش) .

أما (نانا) فلعلها استعملت بمعنى بعض
الاشخاص او الاقارب اول الامر مثل بابا ، وماما .
غير ان الطفل لا يحسن التمييز بين الاشياء المتماثلة
بل كثيرا ما يعمم اللفظ على المدلولات المتقاربة في ذهنه ،
فقد يدعو كل الطيور دجاجة ، او كل الثمار عنبا ،
وهكذا . وقد اتفق اني دخلت حانوتنا قبل بضعة
ايام فإذا طفل تحمله امه على ذراعها يمد يده الصغيرة
الى وجهي قائلا : بابا ! .. ربما لانه وجدني اشبه
اباه في شيء ما ، او لان كل رجل عنده بابا . لهذا
كان من السهل ، بل من المفروض ، ان يعمم
الانسان الاقدم في احقاب طفولة اللغة — لفظا
يعني ضميرا او شخصا من الاقارب ، على جميع
الضمائر والاقارب . هذا بالاضافة الى فقره اللغوي
الذي يجعله يستعمل اللفظة في عدة معان .

والذي يجعلنا نظن ان النون قد استعمل بمعنى
بعض الاقارب قبل استعماله ضميرا عاما ، او
بالاضافة الى استعماله ضميرا عاما ، هو اننا نجد
ما يزال حتى اليوم مستعملا بصيغته البدائية الطفولية (نانا)
بمعنى زوجة الاب بلغة الموصل وبمعنى الوالدة
بصيغة (نينه — nenah) بالمصرية و (ننه —
naneh) بالفارسية .

ومهما يكن فقد استعمل النون كذلك ضميرا عاما
كهمزة التنبيه ، منذ سحيق الاحقاب ، وتفرقت صيغة
المختلفة في مختلف الضمائر العربية ، مفتوحا
ومضموما ومكسورا .

أما مفتوحا فنجده في (أنا) وفي اول (نحن) .
ويجىء (نا) ضميرا متصلا بالاسم والفعل والحرف مثل :
دارنا ، تصدنا ، لنا .

ويجىء مضموما في آخر (نحن) ، وفي اول بعض
صيغ الافعال مثل : تقدم ، نعطي ..

نون الوقاية :

ويجىء النون مكسورا بصورة (ني) مفعولا به في
مثل : يسعدني ، انتظروني ، دعاني ..

وقد ظن النحاة ان الضمير في هذه الامثلة
ونحوها هو الياء وحدها ، لانهم وجدوها وحدها
ضميرا في مثل : داري ، يدي ، عندي ..

وأما النون هنا فاخضعوه لاحد تأويلاتهم
المشهورة فقالوا ان الغرض منه وقاية آخر الفعل من
الكسر ، كأنها كسر آخر للفعل امر مناقض لتواميس
الوجود ، فلم يجد الاعراب الاقدمون مناصا من
تجنبه في كلامهم .

ان الاسم العرب يكون مفتوحا او مضموما او
مكسورا حسب موقعه من الاعراب كما هو معروف ،
فلو كان الحفاظ على حركة آخر الكلمة من القداسة
بحيث توهموا لكان ذلك شأنه في الاسم ايضا لا في
الفعل وحده وفي هذه الحالة فقط . ذلك ان اضافة
الاسم الى هذه الياء نفسها في مثل (داري ، يدي)
تسبب كسر آخر الاسم في جميع حالات الاعراب اي أنها
تلغي سائر الحركات الاخرى ، ومنها حتى السكون
عند الوقف لان الوقف في هذه الحالة يكون على الياء .

يقال : جاء ابي ، ورايت ابي ، ونظرت الى
ابي . فلو كان نون (اسعدوني) ، وانتظروني) ، وسمعونني)
أما أتحوه غيرة على آخر الفعل من الكسر ، لكان
حقا عليهم أن يغاروا على آخر الاسم أيضا فيقولوا
بنفس الطريقة : جاء ابوني ، ورايت اباتي ، ونظرت
الى ابيني .. أو ابي (هنا سيان) .

وأين هم من الوقاية ونونها في الحديث المشهور :
«أو مخرجي هم» ؟ ولو كانت الجملة فعلية لكان
نصها «أو يخرجونني هم» ؟ فلماذا يظنون — النحاة —

ان (يخرجون) تحتاج الى وقاية و (مخرجون) لا تحتاج الى وقاية ؟

جماع امر النحويين في هذا وامثاله انما هو ما يسمى بالتعليل بعد الوقوع ، لانهم طبقوا نظرية « ليس في الامكان ابداع ما كان » على اللغة فظنوا كل شيء فيها ينطوي على حكمة بالغة فاجهدوا انفسهم في التفتيش عنها و ابرازها للعيان .

على اننا مهما خالفناهم في هذا او غيره فان ذلك لا ينقص من تقديرنا لهم و اكبarna لجهودهم في تحري الحقيقة بحسب علمهم و وسعهم في ذلك الزمان يوم شقوا طريقا بكارا في ارض وعرة لم يطرقها احد قبلهم .

واذا اراد القارئ برهانا ملموسا على ما قلنا ذكرنا له ان (تي) يظهر ضميرا في الداريجة السورية (واللبنانية) ملحقا بحرف الجر مثل (هي) ، وفي اللبنانية ايضا في مثل : (بي) . وعسى القارئ ان يكون قد سمع فيروز ترتل (ما أدري شونفي) . ونجد برهانا آخر في الانكليزية التي ورد فيها هذا الضمير بصورة (هي) في قولهم : aid me ايديني !

والنحويون اعلم اهل الارض بالمفارقات في قواعد اللغة . ولا يسعنا هنا الا ان نذكرهم بواحدة فقط من تلك المفارقات هي ان العرب قد عبروا عن الجمع الذكور بصيغة المفردة الانثى حيث قالوا بكامل وعيهم وسلامة عقلهم : جاءت الرجال !

وان هذه (التعليمة) لتكفي وحدها لنسف كل تمنطقات النحويين ، وليقولوا في تبريرها ما يقولون . وهي (تعليمة) بالنسبة الى النحويين انفسهم ، اما بلغة طريقتنا في البحث اللغوي مترجمتها ان هذا التعبير اشارة متخلفة من عهد استعمال القاء ضميرا عاما قبل ان تخصص بال مؤنثة المفردة .

من اجل ما تقدم نعتقد ان ضمير المتكلم في «متى اضع العمامة تعرفوني» هو النون ، وان الياء اللاحقة به ليست الا حركة نطقية جعلته (تي) في (صدقوني) كما جعلته (نا) في (علمنا) كما جعلته (نو) في (تساعد ونؤيد) ..

واما ضمير الاضافة الى المتكلم في مثل (كتابي) ، يدي) فائله الهمزة (اي) ، وهذه ائله (آ) .

ابدال النون ميما :

ابدال الحروف ظاهرة لغوية تمتدور مختلف الالفاظ في جميع اللغات ، وقد رأينا ان الهمزة ابدلت ياءا . وهاهنا . وطبيعي ان لا يسلم نون الضمير ايضا من هذه الملمة .

ويغلب على ظننا ان كل ميم نجده في احد الضمائر العربية مبدل من النون ، ولعل الامر كذلك في الآيات ايضا بوجه عام .

ففي الفارسية نجد ان (ما) تعني : نحن ، وائله (نا) بدليل ان توك في الفارسية (بنظر ما) يعني بالذقة (بنظرنا) اي : في راينا .

وفي الانكليزية نجد ان ضمير المتكلم الفرد في حالة الاضافة هو (ماي - my) ، وفي حالة المفعولية (مي - me) . وعبارة : aid me (= ايديني) التي ذكرناها آنفا ترينا بوضوح كاف ان ضمير (مي - me) في الانكليزية هو نفس ضمير (تي) في العربية ، بنفس معناه .

وفي الفارسية (من - man) يعني : انا ، وائله فيما نظن (من) بالعربية ومعناه (الذي) للعامل ، وائله (تن) .

واما (مان - man) بالانكليزية فيعني الانسان او الرجل . واذا شاء القارئ ان يظن ان هذه الصيغة الانكليزية متائلة من الضمائر ايضا فلن نعارضه في ذلك ، بل اننا نشجعه عليه ، لاننا مثله لم نسلم من هذا الظن ، ولا سيما ان نفس الكلمة في العربية (من) تعني كما قلنا (الذي) للعامل ، اي لجنس الانسان ، واستعمالها في الفارسية بمعنى (انا) وفي الانكليزية بمعنى (انسان ، رجل) ، ثم في الفرنسية (مون - mon) بمعنى ضمير المتكلم المضاف اليه . يدل على انها كانت ضميرا عاما اطلق على مختلف الاشخاص .

ونرجح ان استعمال الانكليز (مان - man) بمعنى الانسان والرجل قد بداه العرب في معرفتهم من قديم عهودهم . يدل على ذلك قول المعجم العربي ان (من) تأتي « نكرة موصوفة نحو مرتت بمن معجب لك ، كما لو قلت بوجل معجب لك » !

وقد ثنوها فقالوا : منان انتبا ، وجمعوها جمع المؤنث السالم فقالوا : منات هن ؟ .. وجمع الذكر السالم ، ومنه البيت :

بتعبير النحويين - من الالفاظ التطورية الجاهلية مثل عبشمي وحضرمي ، فقليل جدا . وأما الالفاظ المركبة الأخرى مثل : بسمل وحوقل ودمعز (قال ادام الله عزك) وأمثالها فإسلامية نحتها القوم بدافع الحاجة فهي ليست تطويرية بالمعنى الجاهلي العفوي وإنما هي تطويرية أشبه بالعمل الذي تضطلع به الجامع الآن من وضع الالفاظ للمعاني الجديدة استجابة للحاجة الحضارية المعاصرة .

وخلو العربية من التركيب يعد عند علماء اللغة من أهم خصائصها وخصائص بناتها الساميات المميزة لها عن الآريات التي دأبت على تركيب اللفظة الواحدة من لفظتين أو أكثر .

لكننا نكتشف التركيب اللغوي في العربية قديما، ائبلا جدا .. في الضمائر .

بل ان معظم الضمائر العربية مركب من عنصرين أو أكثر . حتى (هو) مركب من (أو ، آ) ، و(هي) من (اي ، آ) ، بدليل ان العرب ينطقونها اليوم بفتح الواو والياء مشددين ، كما كان ينطقها بعض القبائل العربية الجاهلية أيضا ، مما يدل على أن اللفظة هذا النطق .. هذا بالإضافة الى فتح الواو والياء في الفصحى بدون تشديد .

آنت :

ان النموذج المثالي للضمير المركب هو (آنت) ، لانه يجمع الضمائر العنصرية الثلاثة (آ ، نا ، تا) بصورتها الأولى دون ابدال احد حروفها ، ودون زيادة مثل (انتما) او نقصان مثل (أنا) .

ونجد هذه العناصر الثلاثة بنفس هذا الترتيب في الفرنسية : (آنت - ent) ضميرا متصلا بالفعل المضارع بمعنى (هم) في مثل : marchent (يمشون) . ونجده في الفارسية بصيغة (آند) بالمعنى الفرنسي تقريبا في مثل (بلميده آند) : بلعوا .

نشوء التركيب :

لدينا الآن سؤال : كيف ، ولماذا وقع التركيب في الضمائر ؟

نحسب الاجابة على هذا السؤال ممكنة ومقنعة الى حد غير قليل .

اتوا ليلا فقلت منون انتم ؟

فقالوا الجن ، قلت عموا ظلما

وظاهرة ابدال النون ميما في الضمائر منشؤها العربية أيضا ، ونجدها في ضمائر عربية مختلفة مثل (أنتما) وأئلها (أنتنا) ، و(هم) وأئلها (هن) وهكذا .. يؤيد ذلك لنا ضمير (هم) بالذات ، لان العراقيين ينطقونه بفتح الميم وتشديده (humch) مثل نطق ضمير (هن) في الفصحى .

ويؤيد ذلك أيضا على نحو أوضح واقطع ان القوم في ديار الشام ما زالوا ينطقون الميم نونا ائبلا في مثل : أخوكم وبيتكم ، فانهم يقولون : أخوكن وبيتكن .. وبدلا من ضمير (هم) يقولون (هن) مع فتح النون المشدد . والاصح ان نقول ان الفصحى هي التي تقول (هم) بدلا من (هن) .

التاء

لسنا نعرف عن ائل (تا) اكثر مما عرفنا عن ائل (تا) ، فالارجح عندنا أنها مثلها من قول الطفل : تانانا .. فجزاه الله عن البشرية خيرا .

وقد استعملوها ضميرا عاما كالنون والمهزة . وما زالت موجودة في العربية منفصلة وبصيغتها الأولى (تا) كاسم اشارة ، وتثنيها (تآن) ، ومنها : تسي ، تيك ، تلك . وقد ابدلت ذالا فنتج منها ذا ، ذو ، ذي . وتوجد كذلك ضميرا متصلا مفتوحا في (فعلت) للمخاطب ، ومضموما في (فعلت) للمتكلم ، ومكسورا في (فعلت) للمخاطبة ، وساكنة في (فعلت) للغائبة .. كما توجد في ضمائر أخرى . وتوجد في اول الفعل المضارع للمخاطبين عموما والغائبات عموما : تكرم (آنت ، هي) ، تكرمان (آنتما ، هما الغائبتان) ، تكرمون ، تكرمين .

وأما توجد التاء ضميرا (منفصلا) بصيغتها البدائية الأولى (تا) في الصينية بمعنى هو . وتوجد بصيغة (تو - tu) بمعنى أنت ، في الفارسية والفرنسية والإيطالية جميعا . وهي تنطق (ذو - thou) بالسكسونية ، و (ذاو - thou) بالانكليزية ، بنفس المعنى .

تركيب الضمائر

المشهور أن الالفاظ السامية منفردة ، لا مركبة كالالفاظ الآرية . أما ما ورد مركبا - أي منحوتا

في التخاطب : الفهم والانهام . فاذا كان هؤلاء يقولون (آ) وأولئك يقولون (نا) وقد تعايش القبيلان في صعيد واحد ، فالاصوب والاضمن — حين يخاطب أحدهم شخصا لا يعرف من أي القبيلين هو ، أو حين يخاطب شخصين أحدهما من هذا القبيل والآخر من ذلك — أن يقول (آ — نا) ، لكي يفهم المخاطب مراده أية كانت لفته . .

ولا يحسبن القارئ أن تأويلنا هذا ضرب من (شطحات) خيال مغامر ، فان لدينا على هذا القول لبرهاننا من صميم واقعنا العربي المعاصر ! وذلك أن لدى العرب — في هذا القرن العشرين — مشكلة لغوية مماثلة .. لم يجدوا لحلها وسيلة أنجع من تلك الوسيلة البدائية العتيقة .. الاثيلة . تلك هي رغبتهم في التفاهم على ما هم فيه مختلفون من أسماء الأشهر الميلادية مثلا . فأهل المعربة والهلل الخصب يذكرون هذه الأشهر بأسمائها العربية القديمة — البابلية : كاتون الثاني ، شباط ، آذار ، نيسان ..

أما عرب الشمال الإفريقي — من القناة إلى المحيط — فيذكرونها بأسماء أوربية .

فلما اختلط الفريقان (ثقافيا) على صعيد واحد — من المطبوعات — صارت المجلات مثلا تسجل تاريخ صدور كل عدد منها باللغتين ، فنقول : شهر (نيسان — أبريل) .. لكي يفهم عنها قراء الطائفتين . وكذلك صارت تفعل الإذاعات العربية ، ولاسيما الصادر منها عن عواصم اجنبية .. بالضبط كما قال الاعربون الأوائل (آ — نا) ليفهم عنهم المتكلمون بالضميرين !

ولما كانت الاقطار العربية في الشمال الإفريقي تختلف فيما بينها في نطق أسماء الأشهر الميلادية الأوربية أيضا فقد اضطررنا — شخصيا — إلى أن نفعل ما هو أدهى من ذلك ، يوم ذكرنا اسم الشهر في إحدى المناسبات بثلاث لغات : (غشت — آب — أغسطس) ! (*) ..

فهل يحق لنا — أو يحق لي شخصيا على الأقل — بعد أن اتعرفت هذه التركيبة ، أن استغرب تركيبة : آ — نا — تا (انت) ؟

ولعل من اسباب تركيب الضمائر أيضا أن بعضها استعمال بمعنى غير معنى الضمير ، كالهزمة

والذي نعتده أن الضمائر العنصرية الثلاثة الأولى — آ ، نا ، تا — لم تظهر إلى الوجود في وقت واحد ولا في بقعة واحدة ، وإنما ولد بعضها قبل بعض في أماكن مختلفة من المعربة . فلما التقى الفريق الذي استعمل الهزمة بالفريق الذي استعمل النون مثلا جرى خلط الاثنين فنجم منهما ضمير (آ — نا) بد الهزمة والنون أول الأمر . ومن عجب أن هذه الصيغة البدائية الأولى ما زالت حية تنطق في جنوبي العراق بمعنى المتكلم : أنا .. فصدق أو لا تصدق انهم ينطقونها (آنا) ! ولا ندري من أي القبائل العربية القديمة تخلف هذا النطق . وأما في أواسط العراق فقد تطور هذا الضمير قليلا فنصار ينطق بكسر النون ولو أن الفتحة على الهزمة ما تزال مديدة ، أي : (آني) بلغة بغداد وما حوالها . وأما في الشمال أي الموصل وما حوالها فينطقونها بالصيغة الحديثة أي القرشية (أنا) كما ينطقها معظم العرب اليوم في الدارجات .

ومأ يدل على أن هذا الضمير المركب (آ — نا) كان ضميرا عاما يستعمل في مختلف المعاني أنه يوجد في الفارسية بصيغة (آن) بمعنى (هو) لغير العائل ، أو (ذلك) للعائل وغيره .

كذلك نجد آثار (أنا) في ضمائر عربية مختلفة المعاني : أنت ، أنتما ، انتم ، انتن .

ويبدو أن قبلا ثالثا ممن يستعملون التاء ضميرا عاما قد خالط الناطقين بضمير (آنا) فظهر من احتكاكهم الضمير (آناتا) . ودابت الألسنة على صقل هذه التركيبية وهندمتها حتى أصبحت (أنت) ! وقد سبق أن اتضح لنا أن هذا الضمير هو الآخر قد استعمل بمعان مختلفة ، أي ضميرا عاما .

وبعد اختلاطات أخرى كثيرة ومعقدة نشأت بقية الضمائر ، ولاسيما ضمائر التثنية والجمع : أنتما ، انتم ، أنتن ، هما ، هم ، هن .

بواعث التركيب :

ويلوح أن عدة عوامل قد تضافرت على تركيب الضمائر أي خلطها عند اختلاط الناطقين بها . ولعل أهم هذه العوامل هو أكثرها بدها وبساطة ، وهو عدم فهم هذا الفريق لغة ذاك عند اللقاء ، مع رغبتهم

(*) اللسان العربي — عدد 4 ، حاشية ص 8 .

التي استعملوها كما قلنا للتبسيه والنداء والاشارة .
وعلى هذا يحتمل ان الهمزة في (آ - نا) كانت تعني
التبسيه فاضيف اليها النون ليؤدي معنى الضمير ، كما
هي الحال في تركيبة : هاذا (هذا) ، حيث تؤدي الهاء
معنى التبسيه و (ذا) معنى الاشارة .

كذلك يجوز ان نضيف الى السببين الانفيين
سببا ثالثا لتركيب الضمائر هو (التكرار) للتعبير عن
الجمع : كما كنا نكرنا عند حديثنا عن ضمير (نحن)
الذي قلنا انه مركب من (انا - انا) وربما من (نا - نا) ،
ثم دخلت الحاء بينهما تنغيها .. (في المقال السابق) .

وقد يكون الغرض من التكرار هو التاكيد كالذي
نجده صريحا في اداة النداء (أيا) التي هي في الواقع
(أ ، يا) ، وكل من جزاؤها يغني وحده غناء الآخر ، ثم
صار التخصص بمعنى القريب والبعيد .

وقد ادى التركيبي احيانا الى تكرار نفس
الضمير بمعاني مختلفة مثل (اياي) وهي تركيبة من :
اي ، آ ، يا .. وكلها اثلها : آ .

ونعيد الآن ما سبق ان نوهنا به من اننا لا نقصد
ان ثلاث طوائف من البشر كل منها يتكلم باحد
الضمائر قد اجتمعت في مكان واحد في وقت واحد
فالتقت الضمائر العنصرية البسيطة في ضمائر مركبة ،
لكن الاغلب ان ذلك قد جرى بالتعاقب في أكثر من
مكان . وان استعراض ضمير مطول مثل : أنتما (أ ،
ن ، تو ، ما) ليساعدنا على ادراك هذه الحقيقة .
ولعل النصف الاول من هذا الضمير (ان) قد نشأ
على حدة في مكان ، و (نا) قد نشأ على حدة في مكان
آخر ، بدليل وجوده وحده في مثل (نظر تما) ، ولعل
النون قد ابدل ميميا في مكان ثالث .. هذا عدا الاماكن
الاخرى التي غيرت حركات (آ ، نا ، تا ، نا) حتى
كان الحاصل النهائي (انتما) .

تحليل الضمائر

فما دامت الضمائر مركبة فان خير ما نفعله بها
لنتمكن من حل طلاسمها والنفوذ الى اسرارها هو ان
نخضعها للتحليل فنردها الى عناصرها البسيطة ،
البداية الثلاثة ، التي لا تقبل التجزئة لان كلامها لا
يزيد في النطق على مقطع واحد : آ ، نا ، تا .

واليك تحليل الضمائر المنفصلة :

أنا = آ + نا .

نحن = نا + ح (زائدة) + نو (اثلها : نا) .

انت = آ + ن (نا) + تا .

انت = آ + ن (نا) + ني (تا) .

انتما = آ + ن (نا) + تو (تا) + ما (نا) .

انتم = آ + ن (نا) + تو (تا) + م (ما ، نا) .

انتن = آ + ن (نا) + تو (تا) + (نا) .

هو = او (آ) + آ .

هي = اي (آ) + آ .

هما = او (آ) + ما (نا) .

هم = او (آ) + م (ما ، نا) .

هن = او (آ) + نا .

وأما الضمائر المتصلة فهكذا تحليلها في الفعل
الماضي :

ذهبت (أنا) = ذهب + تو (تا) .

ذهبتنا = ذهب + نا .

ذهبت (المخاطب) = ذهب + تا .

ذهبت (المخاطبة) = ذهب + ني (تا) .

ذهبتما = ذهب + تو (تا) + ما (نا) .

ذهبتن = ذهب + تو (تا) + م (ن ، نا) .

ذهبتن = ذهب + تو (تا) + نا .

ذهب = ذهب + آ .

ذهبا = ذهب + (آ) .

ذهبوا = ذهب + او (آ) .

ذهبت (هي) = ذهب + آ + ت (تا) .

ذهبتنا = ذهب + آ + تا .

ذهبن = ذهب + نا .

وأما في الفعل المضارع فهكذا تحليلها :

أفعل (أنا) = آ + فعل + او (آ) .

فعل = نا + فعل + او (آ) .

تفعل (أنت ، هي) = تا + فعل + او (آ) .

تفعلين = تا + فعل + اي (آ) + نا .

تفعلان (انتما ، هما) = تا + فعل + آ + ني (نا) .

تفعلون = تا + فعل + او (آ) + (نا) .

تفعلن = تا + فعل + نا .

يفعل = يا (آ) + فعل + او (آ) .

يفعلان = يا (آ) + فعل + (آ) + ني (نا) .

يفعلون = يا (آ) + فعل + او (آ) + نا .

يفعلن = يا (آ) + فعل + نا .

أما افعال الامر فتسبقها الهمزة دائما ان كان
الامر مباشرا اي موجه الى المخاطب ، وأما امر

المتكلم والغائب بواسطة اللام فخارج عن موضوعنا الآن :

افعل (انت) = اي (أ) + فعل .

افعلني = اي (أ) + فعل + اي (أ) .

افعلنا = اي (أ) + فعل + آ .

افعلوا = اي (أ) + فعل + او (أ) .

افعلن = اي (أ) + فعل + نا .

ولئن كانت همزة الامر مكسورة هنا فهي مضمومة في مثل : انظر ، انظري . وعندئذ يكون تحليلها : انظر = او (أ) + نظر .. الخ

وقد جزموا آخر فعل الامر فلم تظهر عليه حركة ، من باب الاستعجال رغبة منهم في سرعة انفاذ الامر ، ربما منذ عهد الغاب بأخطارها ووحشيتها . فمن أجل ذلك حذف النون من اواخر صيغ المضارع المنتهية به مثل : تفعلين ، تفعلان ، تفعلون . فبدلا من القول (اهريين ، اسمعان ، اضريون) قالوا : (اهربي ، اسعما ، اضربوا) ، استعجالا أو عنفا . ولعل النون كان موجودا في هذه الافعال اول الامر ، ثم زال . وأما صيغة (تفعل انت) فقد كان تخفيفها عند الامر بحذف الضمة من آخرها فحسب ، كما يجري عليها عند الوقت أيضا .

وأما صيغة (افعلن انتن) فلم يحذف نونها لكيلا تلتبس الصيغة بالفرد المذكر (افعل انت) ، وان كان عامل تجنب اللبس لم ينبج في مواطن أخرى . لكن ربما كانت بعض المشاكل الغابية قد نجبت من مثل هذا الالتباس فاضطروا الى الاحتفاظ بالنون .

وأما ابقاء النون في صيغة امر المخاطب (افعلن) فيظهر كأنه مناقض لهذه القاعدة ، الا ان قليلا من التمعن يرينا ان التأكيد ، لا الاستعجال ، هو المقصود في هذه الصيغة . فمن أجل هذا اسماه النحويون نون التوكيد . وقد جاء هذا التوكيد على درجتين : خفيفة بتسكين نون (افعلن) ، وشديدة بتشديده .

وأما الضمائر المتصلة بالاسماء اضافة وبالحروف جرا فيمكن تحليلها على هذا المنوال :

عندي = عند + اي (أ) .

عندنا = عند + نا .

عندك = عند + آ + ك (انثا : نا ، بدليل

ان التاء ما زالت في الفارسية تقوم مقام هذا الكاف مثل : كتابت = كتابك .. وبدليل استعمال التاء عند

العرب أنفسهم في الفعل مقابل الكاف في الاسم مثل : ذهبت ، مقابل : ذهابك ، وذهبتما مقابل ذهابكما .. عندكما = عند + كو (تو ، تا) + ما (نا) .. الخ وقد تتشابه الضمائر في اول الفعل كالياء في : يفعل ، يفعلان ، يفعلون ، يفعلن .. وكالتاء في : تفعل (انت ، هي) ، تفعلان (انتما ، هما) ، تفعلون ، تفعلن .

ومهما يكن فان النحاة لم يعتبروها ضمائر متصلة ، ولا سيما انهم وجدوا لحسن حفظهم ضمائر غير متشابهة في اواخر الافعال ، كل واحد منها له لفظ خاص ومدلول معين . لكن جابتهم مشكلة فقدان مثل هذه الضمائر المتميزة في بعض الافعال مثل : افعل (أنا) ، تفعل (انت ، هي) ، فعل (هو) .. فكان منهم ان حلوا المشكلة بقولهم ان فاعل الفعل ضمير (مستتر) تقديره : انا ، او انت ، او هو ، او هي .. ولم يخطر لهم ، والحق معهم في ذلك الزمان ، ان الهمزة والتاء والياء والنون في اول الفعل ، وان الفتحة والضمة والكسرة في آخره ، ان هي الا بقايا مبتكرة ، لكن غير مستترة ، تمثل ضمائر مندرة ، كقطعة من فك يجدونها في كهف قبتارخي ليستدلوا بها على آدمي كهفي قديم .

تخصص الضمائر

لا شك ان الاعراب الغابية قد خالجه سرور كثير يوم اكتشف او تعلم (أ) ، فصار يستعملها للتعبير عن شؤون مختلفة ماكان يعرف سابقا كيف يعبر عنها . ومثل ذلك او ما يقاربه يمكن ان يقال عن كل من (نا) و (تا) ، لاننا نعتقد كما قلنا ان كل رهط من أهل المعربة كان اول الامر يستعمل واحدا من هذه الضمائر الثلاثة اهتدى اليه حسب ظروفه الزمكانية . ولعل فرح كل رهط منهم بكلته السحرية تلك ، التي فتحت له عالما جديدا ثائقا من التفاهم والتكاشف ما كان يقل عن فرح الانسان الحديث عندما اكتشف التلفون !

غير انه — الانسان القديم — اضطر الى استعمال الواحد الذي يملكه من هذه الضمائر الثلاثة الجزرية بمعنى الضمير العام كالذي اوضحناه ، أي للدلالة على كل الاشخاص والاشياء واسماء الاشارة والموصولات وادوات النداء والاستفهام (أ ؟) والايجاب (أي) .. وشؤون أخرى . وسبب ذلك طبعا هو فقره اللغوي المدقع قبل اهتدائه الى الفاظ أخرى يستعمل كل واحد منها لواحد من تلك المعاني الكثيرة .. اشبه

بالراعي الذي يملك من دنياه عصاه يحمل عليها متاعه عند المسير ، ويتوكأ عليها عند التصعيد في الأكام ، ويركزها في الأرض ليستظل تحتها بعباعته عند الهجرة ، ويهش بها على غنمه .. وله فيها مآرب أخرى .

وإذا عدنا الى المقارنة مع انساننا المعاصر قلنا ان عربي الغابة استعمل الضمير العام شبيهها باستعمال الانسان الحديث تلفونه السحري الذي فتح له افقا رائعا من التواصل والتفاهم حتى ان اكثر الذين حصلوا على جهاز التلفون لأول مرة ، ان لم نقل كلهم ، جعلوا يحدثون به هذا وذاك من اتاريهم وأصدقائهم ومعارفهم لا لضرورة ولكن لجرد التمتع بهذه البدعة الحضارية (اللغوية) ! ومن الطبيعي ان هذا الانسان الحديث ، الساحر ، المسحور ، استعمل التلفون اول الامر لمختلف انواع مخابراته ، القريب منها والبعيد ، قبل اهتدائه الى الحضار (الجهاز الذي يخاطب به الرئيس مرؤوسيه وهم في حجراتهم كأنها يستحضرهم به) ، واللاسلكي والمشوات (التليفزيون) ، والمحادار (الرادار) ، التي أصبح يستخدم كلا منها للفرض الملائم ، كما استخدم جده العربي كلمة (آ) لمختلف الاغراض قبل ان يكشف : انا ، انت ، تيك ، ذاك ..

وتخصص الضمائر من احسن الامثلة للتخصص التطوري في اللغة ان لم يكن احسنها . تستعمل كلمة في معنى عام ، ثم يظهر لها مرادف فيتخصص احد المترادفين بجزء من ذلك المعنى العام . وكلما ظهر مرادف آخر تخصص بجزء منه . فماذا تمت معانتي الاجزاء كلها وظهر مرادف جديد ، لم يجد له معنى سائبا يتخصص به فيبقى مرادفا ، وما اكثر الامثلة على ذلك . ومن التخصص مثلا : تيك وتلك ، فهما صيغتان مختلفتان مبنى متفتتان معنى ، لكن القوم مع انهم قد استوفوا أسماء الإشارة فخصوا كل واحد منها بلفظة تدل عليه ولم تعد بهم حاجة الى آخر ، خصصوا من باب الترف اللغوي صيغة (تلك) بالانثى البعيدة و(تيك) بالانثى المتوسطة .. على قول النحاة .

ان اهم العوامل التي ساعدت على تكاثر الضمائر وتنوع صيغها هو (الاختلاط) الذي انضى الى التركيب كالذي قلنا .

وثمة عامل آخر هو (الابدال) اي تغيير بعض حروف الضمير ، مثل ضمير (هن) الذي قلنا انهم ابدلوا نونه ميمًا فصار (هم) وتخصص كل منهما بمعنى .

وثمة عامل ثالث هو اختلاف نطق الحركات فتحا وضحا وكسرا كما تقدم بنا ، فتخصصت كل حركة بضمير ، وابسط مثال على ذلك وأوضحه التاء في : فعلت بالفتح (انت المخاطب) ، وفعلت بالضم (انا) وفعلت بالكسر (انت المخاطبة) ، وفعلت بالتسكين (هي) بل ان مجرد الاختلاف في اطالة الحركة او تقصيرها قد يسبب احداث ضمير جديد ، مثل : سمع وسمعا ، ومثل : ذهب ويذهبوا (في حالة الجزم) .

تباين الضمائر

على ان الجماعات العربية لم تتفق قط في تخصيص الضمائر وتحديد وظيفة كل صيغة منها ، الا في الفصحى ، اي بعد جمع مفردات اللغة وتثبيتها في المعاجم . واما في الدارجات فلم تتفق حتى هذه الساعة

ففي المغرب يقولون (تفعل) وهم يتقصدون (أفعل) . نعم انهم يقولون (أنا نيفي) اي : انا اريد . فاما اذا ارادوا جمع المتكلم قالوا : نبغيو ، نقولو ، نمشيو .

وفي سوريا وغيرها يقولون (أفقي) وهم يتقصدون المخاطب الذكر ، هذا بالاضافة الى قولهم (هن) بمعنى (هم) . والعرب عموما ما عادوا يفرقون بين التأنيث والتذكير في هذا الضمير ، غير انهم على عكس السوريين يقولون (هم) بمعنى (هن) .

واما المصريون فيستعملون الميم بدل الواو في مثل : راحوا ، اكتبوا ، ناموا ... ينطقونها : راحم ، اكتبم ، نامم .

واما العراقيون فهم على العكس من ذلك يستعملون الواو بدل الميم في مثل : انتم ، رحتم ، جيتم .. ينطقونها : انتو ، رحتوا ، جيتوا . كذلك يقول العراقيون (تسمعا) بمعنى (تسمعها) بلفظة بغداد ، وبمعنى (تسمعها) بلفظة الموصل ، وهذه الاخيرة لفة بر الشام .

وجميع العرب فيما يظهر صاروا يعاملون المثنى معاملة الجمع . الآن ، في مثل : قالا ، يامران ، اسمعا .. فينطقونها : قالوا ، يامرون ، اسمعوا .

ولابد ان امثال هذه الاختلافات . والتطويرات كانت أكثر تنوعا واكبر عددا في غابر الزمان ، قبل ظهور الفصحى المشتركة .

وبسبب كثرة الهجرات القديمة من المعربة الى الاراضي المجاورة وما يليها ، من مختلف القبائل ،

جانب عروض التجارة ما لا نظير له اليوم في أية عاصمة كبرى من (عروض) الأدب شعرا وخطباً ومواعظ ومفاخرات ومناجزات ، وكل ما لديهم من أفانين منتجات الكلمة في الأدب مع مختلف شؤن السياسة والاجتماع والدين .

وقد كان من الإسلام ان أضفى على تلك (الفصحى) العربية صبغة رسمية لظهوره في بؤرة اشاعها (مكة) ولنزول القرآن بها على الاخص ، فحفظه المسلمون في جميع انحاء الارض العربية ، وتعلمه حتى الصبيان الذين استقامت السننهم عليه الى ان شبوا وشابوا . ثم جاءت العناية باللغة جزءاً من العناية بالدين فتناولوها جمعاً وتدويناً ودرسا وتحقيقاً وتنسيقاً وتقنين قواعد صرف ونحو .. حتى ثبتت القواعد والانفاذ ومنها الضمائر على النحو الذي وعته لنا المعاجم وكتب اللغة .

وقد ادى ذلك الى امرين : احدهما وقف حركة ذلك التطور اللغوي الجاهلي العفوي واحلال تطور تقامي حضاري في محله اقرب الى العمدية والتناسق. والثاني ان الجماعين والمدونين اللغويين انفوا من كل ما لم يعدوه فصيحاً من لغات القوم الكثيرة ولاسيما لغات من سموهم النبط ونحوهم ، وبذلك توحدت اللغة وثبتت .. فكان ذلك خسارة كبرى لدارس اللغة وبركة كبرى للثقافة والادب .

صيغ المجهول

وكان من اشكال الاختصاص الكثيرة المتنوعة ان بعض الضمائر ، المتصلة في اوائل الافعال ، قد تخصصت بمعنى الفعل المبني للمجهول . ويلوح لنا ان اول ظهور صيغ المجهولية كان في الفعل المضارع ، فقد قال بعضهم مثلاً : ارى ، نسمع ، يضربون — بفتح اول الفعل ، ونطقها آخرون بضمه ، فتخصصت الصورة الثانية مع الزمن بمعنى المجهولية .

أما نطق بعض الفتحاح ضمات فليس بالمستغرب في العصور الاولى ما دام بعض العرب يمارسه حتى اليوم . فالسوريون وغيرهم من بعض العرب ينطقون اسم (بغداد) بضم الباء بدلاً من فتحها . بل ان بعض العامة واشباه العامة من العراقيين انفسهم ينطقون اسم وطنهم (العراق) بضم العين !

ويعد ان استقر معنى المجهولية لهذه الصيغة الجديدة في الفعل المضارع صيغ منها الفعل الماضي على طريقة تصريف الافعال البنية للمعلوم ، فقالوا

وفي مختلف الظروف والاقوات ، كان من الطبيعي ان نجد الضمائر العربية في الاعجيبات أيضاً مختلفة المعاني احياناً ومختلفة المباني احياناً . ويتعبير آخر ان كلا من الضمائر الآرية يمثل احدى القبائل العربية القديمة ، كما ان اختلاف العرب اليوم في مباني الضمائر أو معانيها يعني ان كلا منها يمثل احدى القبائل العربية القديمة (باستثناء ما طرأ عليها بعد ذلك من تطور طبعاً) .

ولنأخذ اهم الضمائر واكملها من الناحية التركيبية لانه المركب المشترك الاصغر ، وهو (انت) نحو في العربية — الباقية — ضمير المخاطب الفرد الذكر . وهذا الضمير رايناه يطالعنا في الفرنسية بنصه وينفس ترتيب حروفه بصيغة (ent -) ضميراً متصلاً بالمضارع للجمع مثل (ident) : يؤيدون ، كما رايناه في الفارسية بصيغة (اند) وهو يستعمل بالمعنى الفرنسي في حالتي الماضي والمضارع معاً مثل : مكيدند (مكوا ، الملك هو المص) ، وميكند (يمكون ، يمصون) . وتكون همزة الضمير (اند) اظهر في مثل صيغة : مكيد اند (مكوا ، مصوا) ، في زمن مضى) .

كذلك يختلف معنى ضمير (هو) في الانكليزية عنه في العربية . فقد وجدناه فيها بنفس اللفظ (هو — who) لكن بمعنى : الذي . كذلك صيغة (هي — he) التي قلنا انها تعني في الانكليزية (هو) . وسوف يمر بنا الكثير من النماذج المماثلة حين نستعرض الضمائر في العربية وبعض الآريات تحت عنوان (معان أخرى) ، ونطلع على ما بينها من توافق وتباين.

توحيد الضمائر

وعندما ظهر الإسلام كانت اللغة العربية تجتاز مرحلة تطويرية معينة لها خطورة خاصة ، حيث كان الشعر السائر والأمثال المتداولة المتبادلة والخلطة في الاسواق ونحوها قد أخذت تبلور لغة (فصحى) مشتركة بين مختلف القبائل والبطون ، غير لغة التخاطب المحلي أو القبلي . وكانت تلك الفصحى تتألف بوجه عام من لغات بعض القبائل التي كانوا يعدونها أفصح العرب من سعد وهذيل وتميم .. وكانت تغلب عليها — أي الفصحى — مسحة قرشية بوجه عام ، لاجتماع العرب سنويًا بمكة في (معرض دولي) يشارك فيه العرب من كل صوب باسم (سوق عكاظ) . وتل من المعارض الدولية اليوم ما يعني بالآداب ومثونتها عناية سوق عكاظ بها . فقد كان القوم يتبادلون فيها السى

آخر يلائمه في ظروفه الجديدة ليملا به ايامه ، ومثل ذلك ما فعلته غلاصم الانسان اذ أصبحت تحتكر الجراثيم وتكافحها لتخفيف وطأتها عن الجسم .

شين النفسي :

ولعل احسن نموذج للزائد اللغوي المعاصر ، في الدارجات العربية ، هو حرف الشين الملازم للنفي في الجملة المغربية والمصرية : مش ناسي ، ما اعرفشي ..

واثل هذا الشين هو كلمة (شيء) لحقت أولا بالفعل المتعدي المنفي لغرض التأكيد فقالوا : ما اعرفشي ، ما قال شي ، ما اكلوا شي ..

وهذا ما لا يزال سائر العرب يقولونه ولكنهم يقصدون معنى (شيء) حقيقة أي : لا اعرف شيئا ، ما قال شيئا ، ما اكلوا شيئا ..

أما في المغربية والمصرية فالتصود بتلك التعبيرات وامثالها مجرد النفي أي : لا اعرف ، ما قال ، ما اكلوا . وبعبارة أخرى ان هذا الشين قد فقد معناه تماما في الدارجتين المصرية والمغربية وأصبح (زائدا لغويا) .

فكيف حدث هذا ؟ الواضح ان كثرة استعمال كلمة (شيء) مع الفعل المتعدي المنفي لغرض التأكيد جعلتها تلتصق به وتعم كل تعابير النفي ولو لم يقصد بها التوكيد .. ثم تعم ثانية فتشمل حتى الفعل اللازم الذي لا يجوز ذكر (شيء) معه بصفته مفعولا به ، مثل : ما جاشي ، ما يروحشي ، ما يمشيش ، ما يصحش .. ثم تعم مرة ثالثة لتشمل جميع حالات النفي حتى في التعبيرات التي لا فعل فيها ، وعندئذ تلتصق (شيء) بالحروف وغيرها في التعبيرات غير الفعلية : مش أنا ، مش عارف ، ما عندناش ، مالوش دعوة . وتختلف استعمالات الشين قليلا في المغربية عنها في المصرية ، وليس هنا مجال التوسع في ذلك .

وبعد ان فقدت كلمة (شيء) معناها على هذا الوجه اضطروا — الناطقون بالشين — الى استخدام كلمة اخرى تقوم مقامها في اللغة لتؤدي معناها في مختلف مطالب الحياة فوقع اختيارهم على كلمة (حاجة) بمعنى الشيء . فاذا قال الحجازي : ما شاف شي ، قال المصري ما شافشي حاجة (= ما شاف شي + حاجة) .

للمجهول (فعل) بضم الفاء من قولهم (يفعل) بضم الياء .. بينما نعتقد فيما يخص صيغ المعلوم ان صيغة الفعل الماضي اسبق الى الظهور من صيغ المضارع والامر .. وليس هنا مكان لتعليل ذلك .

ونكتفي بالذي قلنا عن صيغة المجهول الآن تاركين الصيغ الاشتقاقية الاخرى : انفعل ، تفاعل ، تفعل ، افتعل .. الى فطنة القارئ .

حركات الاعراب

الزائد اللغوي :

يظهر ان كل نوع من انواع التطور يترك وراءه مخلفات من الرواسب . ومن نماذج رواسب التطور في عالم الاحياء ارجل صغيرة خفية لشعبان البوابة تحت الجلد لا تبين ولا تعمل ، وغلاصم للانسان يقول التطوريون انها من رواسب مرحلة الحياة المائية .

وما اكثر الرواسب في حياة البشر الاجتماعية في كل بيئة متطورة مما يسمى بالتقاليد والعرف والعادات تخلفت من آثار سابقة ، أشبه ببقايا الماء في الحفر يتركها وراءه السيل الذاهب .

واللغة — كائنات حيا متطورة — لا تشذ في هذا الباب عما يجري في عالم الاحيائيات وعالم الاجتماعيات ، ولاسيما ان اللغة كيان حي من جهة واجتماعي من جهة . ومن الرواسب اللغوية زوائد متخلفة من عهد تطوري كانت لها نية وظيفتها ، ثم تقلبت الاحوال ففقدت وظيفتها او اعتاضت عنها بغيرها . وأشهر نموذج لهذا في العربية (ما) الزائدة بعد (إذا) . وهي تكون زائدة كذلك عند وقوعها بعد : حين ، وكى ، وحيث ، وغيرها . لان معانيها لا تتغير اذا اضيفت اليها (ما) فصارت : حينما ، كيما ، حيثما ..

واذا اعتبرنا اصل وظيفة (ما) هو الموصولية بمعنى (الذي) لغير المعامل ، فهي في هذه الشواهد قد فقدت هذا المعنى تماما وبقيت بلا معنى . على انها في شواهد اخرى قد استعاضت عن معناها المقصود بمعان جديدة في مثل : لما ، طالما ، ما دام ..

وهذا عين ما يجري في عالم الاحياء ، فبعض الرواسب التطورية ، اي الاعضاء الاثرية ، تفقد عملها تماما كأرجل شعبان البوابة ، وبعضها تستبدل وظيفتها بوظائفها المفقودة ، كالموظف المحال على التقاعد يفقد عمله المؤلف فيجد لنفسه عملا

الاولى (= الرجل + او) ، وفي الحالة الثانية (= الرجل + آ) ، وفي الحالة الثالثة (الرجل + اي) .

وإذا شق على القارئ العزيز هذا التخريج كان علينا أن نذكره بالانفعال التي سبق أن حللناها على هذا الوجه :

افعلوا = اي + فعل + او .

افعللا = اي + فعل + آ .

افعللي = اي + فعل + اي .

فالمضائر هنا من الوضوح بحيث لا يمكن انكارها ، او اغفالها .

والضمة التي تلحق بالمبتدا أو الخبر أو الفاعل - لا تختلف عن الضمة اللاحقة بالفعل . وليس اعون لنا من التحليل في ايضاح الامر ، فلنعد اليه لننظر من خلاله الى الحركات الاعرابية الثلاث في العبارات التالية في الاسم والفعل معا :

الضمة ، في مثل : ينتصر الحق (= ينتصر + او + الحق + او) .

والفتحة ، في مثل : سمع النداء (= سمع + آ + النداء + آ) .

والكسرة ، في مثل : اعتصم بالصبر (= اعتصم + اي + بالصبر + اي) .

اي ان نفس الضمير الذي التصق بالفعل قد التصق بالاسم في الامثلة الثلاثة .

الذي يؤيد هذا تأييدا ممتعا هو وجود حركة الضمة في اواخر الالفاظ البابلية من الافعال والاسماء على السواء . فقد كانوا يقولون - من الافعال مثلا :

سَخَو (sahamu) : سخن .
تَلَفَو (qalafu) : تلف (تشر) .
صَرَمَو (saramu) : صرم (تطمع) .

ومن الاسماء :

ايدو (idu) : يد .
ملاحو (mallahu) : ملاح .
تربتو (tarbitu) : تربية .
حرتو (hirtu) : حرية .

وهنا تجابهنا نقطة مهمة . ان الفعل لا يعتبر كلاما مفيدا بذاته ما لم يقترن بالاسم الذي وقع الفعل منه أو عليه (في حالة المجهولية) ، فاذا غاب ذلك الاسم جرى بنائبه الضمير ليبدل عليه . لذلك كان من

وإذا كان الشين تد سبيناه (الزائد اللغوي) فان كلمة (حاجة) يمكننا تسميتها (المعوض اللغوي) وهو الكلمة التي تحل محل كلمة فقدت وظيفتها . وهذا المعوض اللغوي ان لم يكن مرادفا لسلفه فلا بد من سلب معناه واعطائه معنى سلفه ، وعندئذ ينبغي أن يحل محله بدوره عوض لغوي آخر ليؤدي معناه السليبي .

على ان (شي) تظهر في الدارجة السورية في مثل تولهم : اعطيني شي كتاب ادبي ، او : تعرف شي طبيب اسنان ؟ ولعل القارئ قد سمع نصري شمس الدين يعني : « لو بتحاكيني شي مرة يمكن تحييني ! » والظاهر ان (شي) في هذه التعبيرات تعمل كأداة تنكير بمعنى (واحد) ، اي : لو بتحاكيني مرة (واحدة) . اي ان (شي) هنا لم تتعطل عن العمل بل ابدلت به غيره .

وفي المغرب (كل شي) - وينطقونها كلمة واحدة (كلشي) - تعني : كله ، أو كلهم ، أو كلنا .. فاذا ارادوا ان يقولوا (كلنا نريد) قالوا : كلشي نبيغو .

وفي العراق يوجد الشين في (كلشي) - بكسر اللام مشددا - بمعنى (جدا) ، في مثل : كلشي زين : جيد جدا .

الضمير الزائد :

اظننا بعد هذا التمهيد المطنب نستطيع ان نقتحم الموضوع الوعر الذي نريد اليه ، فنقول ان ما جرى على كلمة (شيء) قد جرى ما يشبهه على الهمزة الضمير . لقد تعددت وظائف الهمزة كالذي راينا وكثر التوكؤ عليها في الكلام فاضافوها الى الافعال في اولها او في آخرها ، حتى لقد اضيفت الى الفعل الواحد في بعض الحالات في اوله وفي آخره معا مثل : اذهب (= اي + ذهب + آ) و : افعل (= اي + فعل + اي) .. بل لقد اضافوها حتى الى نفسها في مثل (ايا) للنداء (= آ + آ) .. وفي مثل اياي (= اي + آ + آ) ! ..

فالذي نعتده ان حركات الاعراب ليست الا رواسب نظورية من الهمزة في مختلف حالاتها النطقية : آ ، او ، اي .

واليك هذه التعبيرات نوردها على طريقة النحويين : جاء الرجل ، ورايت الرجل ، ونظرت الى الرجل . فاذا نحن حللنا كلمة الرجل وجدنا انها في الحالة

(maloho) ، **تريثو** (tarbitho) **حروتو** (hirouto) . غير ان الاعمال السريانية قد تخلص بعضها من هذه الحركة وبقيت ظاهرة على بعضها مثل : **شرمو** (sharmo) : شرم او صرم ، **فرو** (fro) : فرا (قطع) .

ومن عجب اننا نجد الضمة علامة اعراب في الاسماء الاغريقية واللاتينية لكن متبوعة بالسين ، ففي اللاتينية تنطق ضمة مستقيمة كالأكدية ، مثل : calamus (قلم) Antonius (انطونيوس) . اما في الاغريقية فتنتطق الضمة مزقوفة كما في السريانية : kalamos و iogos (كلمة) . وهي تنطق في الايطالية كالسريانية تماما اي بدون السين مثل : gatto (قط ، هر) ، و Antonio

ويجوز ان تكون هذه الزقفة الايطالية منحدره من لهجة لاتينية قديمى ، كما يجوز ان تكون ترخيما من اللاتينية المعروفة بحذف السين ، كالذي حدث للسين في الفرنسية حيث اهلوا نطقه ترخيما بالرغم من انهم لا يزالون يكتبونه في مثل : suis, les, des :

ولا ندرى هل بنا حاجة الى القول الآن ان الهزمة نفسها في الامثلة السابقة كلها قد ذابت واختفت ولم يبق الا حركتها اثرا يدل عليها . فان الهزمة كما هو معلوم اكثر الحروف تعرضا للتخفيف او الذوبان . واذا كان بعض اللهجات العربية ومنها الفصحى تعترف بهزمة صلبة لا تحصى في اول الكلمة سماها النحاة همزة القطع فان بعض العرب كانوا يصلون — اي يحذفون — حتى همزات القطع ، وما زال المغاربة يحذفونها عند قراءة القرآن في مثل (له ما في السماوات وما في الارض) يقرؤونها (فلوَض) بكسر الفاء وفتح اللام كأنها كلمة واحدة من وزن دمشقي ، و(والآخرة) يقرؤونها (والآخرة) من وزن عباقرة .

والذي يظهر من المفردات التي استعرضناها من اللغات البابلية والارمية والايغريقية واللاتينية ان كل فئة من ابناء العربية كانت تنطق باحدى هاتيه الحركات المستقيمة او المائلة ، لكن تلك الحركات التقت وتخالطت وتفاعلت في العربية — ذلك المسبك اللغوي الكبير — فأخضعها ذلك للقاعدة اللغوية الاخرى التي نوهنا بها اكثر من مرة ايضا وهي قاعدة التخصص . فالظاهر انه نشأ جيل من العرب في زمان ما ، في مكان ما ، ينطق ابناؤه بمختلف الحركات في وقت واحد بدون تمييز . ومع مرور الزمن اخذت تلك الحركات المختلفة تبحث لنفسها عن عمل تختص

الطبيعي ان تتصل الضمائر بالافعال ويظهر بعضها على صورة فتحة او ضمة او كسرة . غير ان الاسم لا يحتاج الى نكر الضمير معه لان الضمير ما هو الا نائب الاسم ، يذكر عند غيابه ليدل عليه . اما عند وجود الاسم فالاسم هو الذي يدل على نفسه . فكيف ظهر معه الضمير اذن ، والتصق به ؟

قالوا بصيغة الامر : اذهب آ ، اذهب او ، اذهب اي .. لكي يعرف السامع من هو المقصود بفعل الذهاب . فلماذا قالوا : الرجل آ ، الرجل او ، الرجل اي ؟ كيف انتقل هذا الضمير من الفعل الى الاسم ؟

الذي نظنه هو انهم كما استعملوا الضمير مع الفعل ليخبر عن فاعله (المسند اليه) استعملوا الضمير مبتدئا مؤخرا ، فقالوا : صغير او ، مريض او ، جائع او ... بمعنى صغير هو ، مريض هو ، جائع هو .. مثلها قالوا في الفعل : سخن او ، صرم او .. في البابلية .

وقد تكرر ذلك فيما يظهر الى حد انه صار عادة نطقية فلتصق الضمير بالاسم على هذا النحو وامثاله ، ثم عم فشمّل جميع الاسماء مبتدئا وخبرا بدون تمييز . وقد رأينا كيف جرى ما هو اكبر من ذلك على شين النفي الذي لصق بالافعال المتعدية اولا ثم شمل جميع الافعال ثم جميع حالات النفي .

وواضح ان ظاهرة تحريك اواخر الالفاظ تد نشأت لدى الفريق الذي كان الضمير عنده هو الهزمة . وهنا تجابهنا الظاهرة اللغوية الاخرى التي عرضت لنا اكثر من مرة في مراحل هذا الحديث ونعني بها ظاهرة **اختلاف القوم في نطق الحركات** . فقد كان من اختلافهم في نطق الهزمة ان كانت عند بعضهم (آ) وعند بعضهم (اي) وعند بعضهم (او) — (o) وعند بعضهم (او) — (û)

وقد رأينا الضمة في المفردات البابلية التي اوردناها آنفا . اما الفتحة فنجدتها في السريانية الشرقية — العراقية بوجه عام — التي تنطق فيها الاسماء البابلية الائمة الذكر هكذا : **ايدا** (ida) **ملوحا** (maloha) **تريثا** (tarbitha) **حروتا** (hirouta) . واما في السريانية الغربية — الشامية بوجه عام — فتنتطق حركة آخر الاسم بين الفتحة والضمة ، اي مزقوفة بالتعبير السرياني ، هكذا : **ايدو** (ido) ، **ملوحو**

به حتى استقرت كل واحدة منها فأصبحت تدل على مجموعة من حالات الاعراب الكثيرة .

وكانت اتواها الضمة فيما يظهر ، اي ان الجماعات التي كانت تنطق بالضمة كانت اكثر عدداً أو اعز جانباً من الجماعات الأخرى ، فالتصقت ضمتهم بالأسم في جميع الحالات الاعتيادية المهمة من الكلام سواء في الجمل الاسمية والفعلية : الشمس طالعة ، يهرب الغزال .. اي في الجمل التي تتكون من كلمتين (مسند اليه ومسند) . حتى المفعول به ما زال يرفع اذا تألفت الجملة منه ومن الفعل (في حالة الفعل المبني للمجهول) . اما اذا اجتمع الاسم الأصلي (الفاعل) مع اسم آخر في الجملة الفعلية فان الفتحة هي التي تتولى الاسم الطارئ ، من المفعولات ، والحاصل ، والظرف ..

وبتعبير آخر ان الرفع اختص بالمسند اليه في الجملة فاعلا كان أو مفعولاً به ! فاذا ظهر معه في الجملة الفعلية اسم آخر أو اكثر انبرت له ظاهرة لغوية ثالثة هي قاعدة (تجنب اللبس) لتعمل عملها فيه واذا بالفتحة تتخصص بجميع الاسماء عدا المسند اليه وخبره ، اي جميع حالات المفعولية وما اليها . ومن التعميم والتجوز المبالغ فيه ان نسمي ذلك تخصصاً فان حالات النصب في العربية من الكثرة والتنوع بحيث يصعب وصفها او تحديد معناها بتعبير واحد . وانما تبدو اقرب الى التخصص حالة الجر التي انحصرت في الاضافة وبضعة حروف .

ونعود لنستدرك فنقول انه ليس حتماً ان تكون الحركات الثلاث قد تخصصت في وقت واحد ، فمن المحتمل ان بعضها قد تخصصت قبل بعض . كما ان وجود حركة واحدة في البابلية والارمية لا يدل على ان ظاهرة الاعراب بالحركات الثلاث لم تكن قد نشجت وتبلورت في العربية عند هجرة الاكديين — البابليين القدماء — والارميين ، ولكنها ربما لم تكن قد عمت جميع الاعريين ، او كانت قد عمت ثم اخذت تزول عند بعض العرب ولا سيما من جاؤوا الاعاجم منهم وخالطهم .

والواقع ان المأثورات الوثائقية تدل على العكس من ذلك ان ظاهرة الاعراب كانت موجودة على اتمها في العربية منذ عهد سحيق ، لان الاكديّة نفسها وكذلك سائر الساميات القديمة — كانت في عهدها الاولى خاضعة للاعراب بالحركات الثلاث . وما الحركة الواحدة في البابلية الحديثة والارمية الا مرحلة

تطورية متأخرة تمثل وشك الاعراب على الانتشار . فهي تمثل نهاية عهد الاعراب لا بدايته .

وما يدل على قدم الاعراب في العربية وجوده في بعض الآريّات على وجه يقارب الاعراب العربي ، ولاسيما اللغتين الأوربيتين القديمتين : الاغريقية واللاتينية . وما يزال الاعراب موجوداً في بعض اللغات الأوربية المعاصرة كالروسية والمانية والاطالية . والفروض على كل حال ان الآريين عموماً قد غادروا المعربة قبل الساميين عموماً ، بزمن طويل .

تدريس النحو

وانه لمن العيب الاستمرار في تعليم قواعد اللغة العربية على الطريقة التفصيلية المأثورة ، التي جعلت علم النحو اصعب العلوم على التلميذ وابغضها الى نفسه الهشة وذهنه الجديد .

فالصواب عندنا ان الاسم — العرب — يكون مرفوعاً في جميع الحالات الاساسية اي حين يكون عماد الجملة او خبراً له ، الا اذا نصبته (ان) واخوانها . والذي نعنيه هو ان (ان) تنصب الاسم ولا ترفع الخبر ، لان الخبر مرفوع اصلاً ! اما (كان) واخوانها فلا ترفع ولا تنصب ، وانما هي كبقية الافعال لها فاعل . وكونها افعالاً ناقصة لا يغير من الامر شيئاً . فاذا قلنا : (اصبح الجو بارداً) كان (الجو) فاعلاً لفعل (اصبح) ، واما (بارداً) فقد نصب لتمييزه عن الفاعل فحسب ، مثل نصب المفعول به وغيره في : ضرب زيد عمراً ، وصيرت الحرارة الماء بخاراً ، واتبل السكران مترنحاً يميناً طوراً وشمالاً احياناً ففر الصبيان خوفاً ، واعطى بكر خالد صدقة صاعاً تمراً . واعطى (بصيفة المجهول) خالد صدقة صاعاً تمراً ..

فبعد ان يقال للتلميذ ان الاسم العرب يكون مرفوعاً اذا كان عماد الجملة او خبراً له (بصرف النظر عن كونه فاعلاً أو مفعولاً به) ، يقال له ان الاسم يكون مكسوراً اذا وقع مضاناً اليه أو مجروراً بأحد الحروف المعروفة . وفيما عدا حالتي الرفع والجر هاتين يكون الاسم منصوباً في ذلك الخليط الكبير من الحالات الاعرابية الأخرى .. ومنها حتى حالات الجر التي حذف منها حرف الجر نفسه ، اي حين يكون منصوباً بنزع الخائض على تعبير النحاة . وبعد ان يتعلم التلميذ ذلك ويتمكن منه ، لا بأس ان يعلمه ما شاعوا من التوصيلات اذا هو اراد التخصص في اللغة وآدابها .

الفعل (ذهبوا) ، ولما كانت هذه الصيغة تشبه قولهم (ذهبوا) بمعنى الجمع فقد انبثرت قاعدة تجنب اللبس وأمسحت المجال لضمير (أ) الذي كان ينطق به بعض الاعربيين فيما يظهر فراجت صيغة (ذهب) بفتح الباء للفرد و(ذهبوا) بفتحها ومدها للثنتين .

وهذا كله عن صيغة الماضي ، فإما المضارع فقد استأثر فيه ضمير (او) بجميع صيغ المفرد هذه : اذهب انا (= اذهب + او) ، تذهب انت ، يذهب ، تذهب هي .. وصيغة الجمع : تذهب .

وبدلا من التحدث عن كل ضمير على حدة نؤثر ان نعرض الضمائر المنفصلة كلها لنظر القارئ الكريم مع ما يقابلها من الضمائر المتصلة في صيغ الماضي والمضارع وأمر المخاطبين ، تاركين له التمعن فيها وملاحظة ما يجري منها على قاعدة وما يجري منها على مصادقات الاعتباط التطوري :

انا : ذهبت ، اذهب
 نحن : ذهبنا ، نذهب
 انت : ذهبت ، تذهب ، اذهب
 انت : ذهبت ، تذهبين ، اذهبي
 انتما : ذهبتما ، تذهبان ، اذهبا
 انتم : ذهبتم ، تذهبون ، اذهبوا
 انتن : ذهبتن ، تذهبن ، اذهبن
 هو : ذهب ، يذهب
 هي : ذهبت ، تذهب
 هما : ذهبا ، يذهبان
 هما : ذهبتا ، تذهبان
 هم : ذهبوا ، يذهبون
 هن : ذهبن ، يذهبن .

التثنية والجمع

القرائن اللغوية تنبئ ان الاعربيين عمدوا الى تكرار اللفظة للدلالة على الجمع ، وقد سبق ان قلنا ان ضمير (نحن) مركب اثلا من تكرار (انا) ، وان بعض اللغات ما زالت تجمع الاسماء بتكرارها كما في الاندونيسية (سودارا سودارا = صديق صديق ، اي: اصدقاء) .

وقد وجدنا كلمة عجيبة تؤيد هذه الفكرة وتخرجها من طور النظرية الى ما يقرب من اليقين ، وهي (آنان) الفارسية وتعني : اولئك ، هم . ومفردها (آن) : هو لغير المعامل ، ذلك للمعامل وغيره ، كما قلنا قبل . وواضح ان (آنان) ما هي الا تكرار (آن)

ماذا ستكون النتيجة ؟ النتيجة ستكون ان يخسر التلميذ العلم بالقواعد النحوية العقبية ويربح المقدرة على الكلام الصحيح بغير عناء . فاذا قيل له لساذا نصبت (سيفا) في قوله : اذا كان بعض الناس سيفا لدولة ؟ اجاب لانه لا مرفوع ولا مجرور ! ولا عليه ان يجهل انه مفعول به او تمييز او حال او ما يسمونه خبر كان . فان المقصود هو ان يتعلم كيف يصوغ الكلام الصحيح . وذلك فيما نزن خير من ان نذهب به - التلميذ المسكين الاتف الذكر - بتلك القواعد النحوية العسيرة فيخسر تعلم القواعد النحوية والمقدرة على الكلام الصحيح معا ، كما هو شأن اربعة اخماس حلة الدكتوراه والليسانس من خريجي الجامعات العربية .. على اقل تقدير .

الضمائر المتصلة

يظهر ان الاعربيين استعملوا الضمائر منفصلة اول الامر فقالوا : ذهب انتما ، ذهب انتم ، ذهبهن.. ثم التصقت الضمائر بالانفعال فتبيل في حالة الفاعلية : ذهبتما ، ذهبتم ، ذهبن . والواقع ان بعض الضمائر المتصلة ليست الا اختزالا للضمائر المنفصلة كما في هذه النماذج ، او اعادة لها بنصها كضمير (هو) في قولهم في حالة المفعولية : رأيتهم (رأيتهم) ، وكضمير (هما) في : رأيتهما ، و(هن) في : رأيتهن . ولعل بعض الاقدمين الحقوا ضمير (هم) مثلا بالفعل فقالوا (نام هم) بدلا من (ناموا) ، لكن هاء (هم) خففت مع الزمن فنشأ النطق المصري الذي نوهنا به : (عرفم ، نامم ، راحم) أي النطق اليعربي المندرس فيما يبدو ، ويمثله النطق المصري الراهن . وبعد تخفيف آخر زال الميم أيضا وبقيت الضمة وحدها فنشأ نطق الفصحى : عرفو ، نامو ، راحو .

ومهما يكن فان قاعدة الحاق الضمير بالانفعال مختزلا او معادا قد اختلفت ، ففي قولهم (رأيتها) كان ينبغي ان يعيدوا ضمير (هي) فيقولوا (رأيت هي) ، او يختزلوه فيقولوا (رأيتي) ، لكننا لا نجد احدى هاتين الصورتين في لغتنا في الماضي او المضارع ، وانما نجد الثانية منها في صيغة الامر (اذهبي) ، لكن هذه مخففة من (تذهبين) لا من (ذهبي) .

كذلك ضمير (هو) الذي استعملوه متصلا في حالة المفعولية مثل (رأيتهم) لا نجده متصلا في حالة الفاعلية فلم يقولوا (ذهبوا) ، بل (ذهب) . واغلب الظن ان هاء (هو) قد ذابت تخفيفا فصار

وبعبارة تحليلية أوضح ان (آنان) = آن + آن)؛ وان هذا التكرار لم يكن المقصود به سوى الجمع . اي ان اصل معناه كان (هو هو) بمعنى هم ، أو (ذلك ذلك) بمعنى اولئك .

لكن بما ان (آن) وحدها تعني الفرد و(آنان) تعني الجمع فقد وقع في وهم الاجيال اللاحقة التي ورثت صيغة (آنان) ان (آن) الثانية تعني اداة الجمع . لذلك لما تطور الضمير (آن) فصار ينطق (اين) بمعنى هذا ، لم يجمعه بطريقة التكرار على (اين اين) ، بل اضافوا اليه (آن) الثانية بصفتها اداة جمع فقالوا (اينان) : هؤلاء (= اين + آن) .

وبعد ان رسخت مكانة (آن) كاداة للجمع شملت جميع الاسماء اول الامر عند الناطقين بها فيما نظن . ثم ظهر قوم نطقوها (هان) و (ها) .

وبعد الاختلاط والتعايش تخصصت (آن) في الفارسية بجمع ذوات الروح من حيوان وانسان وكواكب ، وقد كانت الكواكب تمثل ارواحا وآلهة عند القدماء كما هو معلوم . وتخصصت (ها) بجمع الجادات اولا ، ثم اخذت تنافس (آن) اخيرا في جمع العاقل ايضا ، في الفارسية الحديثة . واما صيغة (هان) فقد صارت في الفارسية تعني التحذير اي التنبيه ، وسوف نطالعنا ثانية مع ائلتها (آن) في مجال حيوي آخر . فلنتركها وشأنها الان .

وومانا لنظريتنا في امومة العربية نعتقد ان استخدام (آن) اداة للجمع نشأ في المعربة اولا . فاول دليل على هذا هو ان (آن) ما زالت في العربية اداة (التثنية) وهي ادنى الجمع . بل انها ما زالت باقية في جمع الكثير من الاسماء العربية ، كالاخ والصبي والغلام والفارس والنديم والقضيب والحمل والذئب.. فهذه الاسماء كالكثير سواها ما زالت تجمع على : اخوان وصبيان وغلمان وفارسان وندمان وقضبان وجملان وذؤبان . والنسوان جمع ضاعت فردته في اطواء الزمان .

ويكثر هذا الجمع على الاخص فيما يدل على الانسان من الصفات التي وردت على وزن (افعل) كالابيض والاسود والاطرش ، فهي تجمع على بياض وسودان وطرشان .

ولئن كانت لاداة الجمع هذه صيغة واحدة في الفارسية هي (آن) فما زالت لدينا منها في العربية خمس صور : آن ، اين (بفتح الهمزة) ، اون (بضمها)

اين (بكرها) ، اون (بفتحها) .. نجدها في قولهم : صيادان ، صيادين (اثنين) ، صيادون ، صيادين (جمع) ، يرضون . وقد تخصصت الصيغتان الاوليان بالتثنية كما هو غني عن البيان ، والثالثة والرابعة بالجمع ، والاخيرة بجمع المضارع المتصور .

والظاهر ان جميع الاسماء كانت تجمع وتثنى في العربية بالالف والنون اول الامر ، ثم اراد الاعربي ان يخص التثنية بتعبير خاص بها يميزها عن حالتها الاعراض والجمع ، وربما كان ذلك لاسباب اجتماعية بقصد الدلالة على (الزوجين) من الذكر والانثى عندما أصبحت للحياة العائلية اهمية خاصة عنده . وقد ساعده على هذا التمييز بين التثنية والجمع ظهور صيغ جديدة ، فاخصص الصيغة الاصلية (آن) بالتثنية وترك الصيغة الطارئة (اون) للجمع .

ولئن كانت (آن) اداة تثنية للعاقل وغيره فالذي نعتقده ان (اون) ايضا كانت اداة لجمع العاقل وغيره، وما زالت شواهد من جمع الجادات على طريقة جمع المذكر السالم تطالعنا في العربية في مثل جمع البرة - بضم ففتح - على برون وبرين - والسنة على سنون وسنين ، والارض على ارضون وارضين، والمئة على مئون ومئيسن .

ثم انه لما كثرت صيغ جمع التكسير عند مختلف القبائل والبطون وراجت اخذت (اون) تتخصص بجمع العاقل .

ويلاحظ ان صيغ (افعل) التي تجمع بالالف والنون (كالسودان والبيضان والعرجان) تدل على الانسان ، فاما اذا اريد بها غيره فهي تجمع على سود وبيض وعرج . وهذا احد مظاهر تخصص ضمير (آن) بالانسان ، ونحسبه يفسر لنا كيف تخصص في الفارسية بذى الروح اول الامر ، ثم تخصص بالانسان وحده في اللغة الحديثة .

ولم تظهر في التثنية صيغ تكسير ، او ظهرت واندحرت ، فبقيت التثنية كلها سالمة ، للذكر والانثى، والعاقل وغيره .

التأنيث وجمعه

اداة التأنيث في الاكدي هي التاء يلحقونها بالاسم المذكر . فمثلا (بعلو) تصبح (بعلتو) . وهذا عين ما نجده في العربية : (المرؤ) مؤنثة (المرأتو) ، و (الهرؤ) مؤنثة (الهرتو) ، وهكذا . واما تولنا رأيت المرا والمرأة،

فلما التقى النطقان - نطق المؤنث بالمد
وبالقصر - تخصصت الفتحة القصيرة بالفتحة
والطويلة بالجمع .

التنوين

تنوين الاسماء يعد عند النحاة اشارة تمكنها
من الاسمية ، واول مشكلة يثيرها لهم تفجير الضمائر
في هذا الصدد هي ان الاعمال ايضا تنون كالاسماء،
وان تحليل قولهم بصيغة امر المفرد (الذهبن) يكشف
انه (= اذهب + ان) .. كما ان قولهم رجلن (رجلا)
(= رجل + ان) ! ومثل ذلك يقال في : « لنسفنن
بالنافية » . ومن تشديد النون نشأت صيغ اخرى
مثل : لاعذبنه او لياتيني نبأ عظيم .

ويبدو ان التنوين كان أكثر شيوعا في الاعمال
وما وصل الينا من مآثورات العرب . وما زال
الجنوبيون من اهل العراق يكثر من تنوين الفعل في
مثل : اصبن ، واصومن (= اصب ، واصوم) ..
ومنها الاغنية الشعبية المراقية المشهورة : ما
اكر اقولن آه خوف الفضيحة (= ما اقدر اقولن آه..)
وواضح ان هذا مجرد لهجة ، وليس المقصود بها
التوكيد كما هي الحال في الامثلة السابقة .

ولعل من دلائل شيوع التنوين في الاعمال تدبيرا
تنوين الفعل المضارع في السكونية : bringan
(يجلب) ، و beatan (يضرب) ، و
scearwian (يرى) ، وتنطق (شاويان) ولعلها
من العربية : شاف يشوف .

والذي نظنه ان بعض العرب كانوا يلحقون
بالالفاظ ضمير (آن) بالاضافة الى اولئك الذين كانوا
يلحقون بها ضمير (آ) . فان مسح هذا فهو سبب
نشوء التنوين ، والا فلا مناص لنا من ان نفترض انهم
الحقوا الهمزة اولا ثم الحقوا بها النون ثانيا . لكننا
نرجح الاحتمال الاول .

وعندما التقى التنوين بحركات الاعراب
تخصص التنوين بالتفكير وبقبت الحركات غير المنونة
لحالات التعريف بوجه عام . ولعل من هذا القبيل
ضمير (آن - an) الذي تخصص في الانكليزية
بالتفكير مع الاسماء المبدؤة بالهمزة .

فعلى هذا يكون تحليل الاسم المنون هكذا :
واتفا = واقف + آن .
واقف (بالضم) = واقف + اون .

بالفتحة على كليهما ، فشبيهه بنطق السريان
الشرقيين : بعلا وبعلنا .

وقد ظهرت هذه التاء فيما يبدو من اضافة ضمير
(ت) الى الاسماء ، وهو الذي نجده ضميرا متصلًا
بالفعل الماضي (فعلت هي) للدلالة على معنى التانيث
ايضا ، (فعلت = فعل + ات) .

وكان بعض العرب يخففون تاء (المرأة والمهرة)
فينطقونها اشيء بالهاء او الفتحة القصيرة ، فصارت
هي القاعدة عند الوقت عموما . لكن بعضهم ينطق
التاء حتى عند الوقف ، وقد سمعت محاضرة ذات
مرة من اذاعة بيروت كان المحاضر يقول في اثنائها
(الجامعة ، الكليات ، الحريت) . وهذي هي طريقة
الفرس في نطق معظم الالفاظ المؤنثة المقتبسة من
العربية مثل : دولت ، امانت ، مشروطيت . وهي
كذلك طريقة الفرنسيين في مثل : ce (هذا)
ومؤنثها : cette (هذه) ، و fils (ابن)
ومؤنثها : fillette (بنت) . اما الايطاليون
فيطلقونها فتحة في آخر الاسماء المؤنثة مثل gatto
(هر) ومؤنثها gatta (هرة) ، ومثل bravo
ابارغ ، او مرحى للذكر ، و brava (بارعة)
او مرحى للانثى) .

وقد تحير النحاة العرب في امر علامة التانيث
هذه هل هي التاء ام الهاء . واخذ بعضهم ومنهم
الفيروزابادي في قاموسه بنظرية الهاء . لكن الذي
يبدو لنا مما تقدم اننا التاء ، اي ضمير (ات) ذابت
همزته وبقبت الفتحة على ما قبله دليلا عليها .

واما جمع المؤنث السالم بالالف والتاء فالاعلب
انه ناشىء من مد فتحة ما قبل التاء ، مثل : ذئبت ،
شجرت ، حركت .. كان بعضهم ينطقها بالمد : ذئبات ،
شجرات ، حركات .

وعادة اطالة الحركات عند بعض العرب ما
زلنا نجدها في المغرب ، فان حميد ، مدير ، بالتى ..
ينطقها اكثرهم : حاميد ، مودير ، باللاتي .. وما
اكثر ما تسمع من بعضهم : والله العاظيم .

ويبدو من هذا الباب نطق المصريين ببعض
اسماء الاناث مثل : زينات ونعمات ، بدلا من زينت
ونعمت .. وقولهم : دمك شريات ، ونعتقد ان اثلها
(شريت) كما ينطقها العراقيون ، وتعني الاشرية
الحلوة ، وفصيحتها (شربة) .

واقف (بالكسر) = واقف + أين .

يقول الايراني اليوم (آن قلم) بمعنى : ذلك القلم . فكذاك جدنا ساكن الغاب اذا قال (آن شجره) — أي هذه الشجرة او تلك الشجرة — يكون قد عرفها لمخاطبه من بين الاشجار الأخرى . ومع الزمن أصبح قوله (آن شجرة) يدل على الشجرة المقصودة ولو كانت غائبة عن العيان . ودأبت الاجيال على ذلك حتى صارت (آن) أداة للتعريف .

وقد ابدل بعض الإعرابين الهمزة هاء فنطقوها (هان) ، ويظهر الضمير على هذه الصورة أداة للتعريف في العبرية القديمة ، ربما موروثا عن أمها الكنعانية .

وقد نطقها آخرون من العرب مرخمة (ها) كما يتضح من أكتيب بعض اللغات العربية البائدة كالحبانية والثمودية والصفوية (نسبة الى روابي الصفا التي اكتشفت فيها بعض الأكتيب منقوشة على الحجر ، بسورية) ، فقد ورد في هذه اللغات مثلا: ه و ع ل (الوعل) ، ه ج م ل (الجلل) ، ه د ر (الدار) ه ب ي ت (البيت) .

ويحتمل أيضا ان (ها) لم تتكون ترخيما من (هان) بل ابدالا من الهمزة (آ) .

ولا تؤثر الانسياق مع الاحتمالات الآن لكرتها وتشعبها ، فان جذور الضمائر وفروعها من التشابك والتعقيد بحيث يتعذر احيانا ان نستل احدها من بين اخوانه دون مساس بسواه .

وأيا كان اثل (ها) فقد كانت أداة تعريف في تلك اللغات البائدة ، وقد رسموها هاء مجردة : (ه) ، ويغلب على ظننا انهم كانوا ينطقونها بالمد (ها) في هذه الالفاظ وامثالها — او في بعض تلك اللغات على الاقل — لان القوم لم يكونوا يستعملون حروف المد في كتاباتهم ، فقد كانوا مثلا يكتبون (در) ليقروها (دار) كالذي رأينا ، و(منت) ليقروها (مناة) ، و(يغوث) ليقروها (يغوث) ، و(عم) ليقروها (عام) أي سنة .

فهذا يشجعنا على القول ان من المحتمل ان (ه ج م ل) كانوا ينطقونها (ها جمل) — مثلما نكتب نحن : هذه ، ولكن ، وطه .. لنقراها : ها ذهي ، ولاكن ، وطها . على أن هذا مجرد احتمال . وانما يمكننا التأكد اذا اكتشف شعر موزون من تلك اللغات يساعدنا وزنه على معرفة حركة الهاء أطويلة هي أم قصيرة .

أما الانعزال فالنتونين فيها يعني التوكيد بوجه عام . الا انه بالنظر لكثرة الضمائر المتصلة لم يمكن تخصيص صيغة منونة لكل منها لان الحركات لا تزيد على الثلاث ؛ لهذا صار تولك (لتذهين) بفتح الباء وتشديد النون — يعني المخاطب والغائبة — وبضم الباء يعني المخاطبين والمخاطبات ؛ وبكسرها يعني المخاطبة . وهذا شبيه بما رأيناه من (تخصص) كل واحدة من حركات الاعراب الثلاث بعدد من حالات الاعراب في الاسماء . أما صيغة (لتذهيان) فيكون توكيدها بتشديد النون ؛ وأما (ليذهين) فهي توكيدية بالتخفيف أو التشديد .

ويلاحظ ان النون يحذف من الاسم المنون عند الوقوف فمن اجل ذلك كتبوا الفتحة المنونة للفاء، اي كتبوها كما ينطقونها في حالة الوقوف عليها . ولم يكتبوا الضمة المنونة واوا ولا الكسرة المنونة ياء لان الوقوف عليها يكون بالسكون اي بحذف النون والحركة التي قبله . ومعنى هذا انهم لم يرسموا التنوين في الكتابة الى ان ظهرت علامات شكل الحركات في العربية فصاروا يرسمون التنوين حركة مضاعفة أي فتحيتين أو ضميتين أو كسرتين .

التعريف

لم يقتصر استعمال الضميرين (آ ، وأن) على الحالات الآتفة الذكر ، وانما استعمالا للتعريف أيضا !

أما (آن) فنطالعنا بنصها أداة تلحق الاسم لتعريفه في لغات اليمن المدرسة . و(آن) هذه قد صادفناها أكثر من مرة كاسم اشارة وأداة جمع في الفارسية ، وأداة تثنية وجمع وتكبير في العربية ، وأداة تكبير في الانكليزية ..

والظاهر ان معنى الاشارة هو الذي اعطاها معنى التعريف ، يؤيد ذلك لنا ان (آن) التي هي أداة تعريف في اليمينيات القدمى ما زالت تستعمل في الفارسية كاسم اشارة . وهذا دليل واهن في الواقع لان الضمائر استعملت بمعان شتى ومنها ضمير (آن) نفسه . غير أننا نلاحظ ان اللاتينية ليست فيها أداة خاصة للتعريف لان الاسم يعتبر فيها معرفة بذاته كالفارسية وبعض الساميات القديمة ، لكن اللاتين استعملوا في حالات التوكيد ادوات الاشارة مع الاسماء بمعنى التعريف .

ولا ندري هل من (أن) أم من (أم) نبطت (أل) التعريف عندنا . لكننا نرجح أنها من (أن) لان نطق الحروف الشمسية بعد (ال). أشبه بنطقها بعد (أن) منه بعد (أم) ..

ومهما يكن فإن (أل) هي التي راجت ودامت أداة للتعريف حتى هذه اللحظة ، لا في المعربة وسائر الاطوار العربية فقط لكن في اوربا وامريكا أيضا ، نعني في اللغات المنحدرة من اللاتينية ، الإيطالية والفرنسية والاسبانية .. حيث يظهر اللام أداة للتعريف في عدة صور : los, les, lo, le, la, il

أما في اللاتينية نفسها فقد ذكرنا من أسماء الاشارة التي استعملت للتعريف : hic و hęc و hoc ، ونضيف إليها الآن هذه الصيغ اللامية الثلاث : illud, elle, illa (= ال + او + د ، تا) .. ونضيف إليها أيضا بهذه المناسبة هذه الصيغ الأخرى : istud, iste, ista وسيأتي الحديث عن عروبة هذه الصيغ الثلاث الأخيرة عند الكلام على (ظهور السين) .

ومعنى هذا ان لام التعريف قد استعمل في اللاتينية بمعنى الاشارة أيضا ، مما يؤيد ما قلناه آنفا من ان التعريف أصله الاشارة . وقد استعملوا اللام بمعنى الضمير كذلك مثل : elle (هو) ، illi, illae (هم) .

والامر شبيه بهذا في بنات اللاتينية مبالاضافة الى استعمال اللام للتعريف في الامثلة السالفة نجده في الفرنسية مثلا ضميرا بصيغة il (هو) ، و elle (هي) .. كما نجده أداة (اشارة) بصيغة la (هناك) . وعدا هذا تستعمل أدوات التعريف تلك مع صيغ لامية أخرى كضمائر في بعض الحالات كما في قولهم montrez le moi أرني اياه .

وقياسا على ما تقدم بنا من الكلام عن الضمائر من اوله يمكننا ان نستنبط من هذا الآن ان كل هذه الصيغ، وغيرها ، قد كانت موجودة في العربية بهذه المعاني وبمعان أخرى على الاغلب ، ثم اندثر ما اندثر وبقي ما بقي .

وما دينا بصدد الحديث عن التعريف وأدواته نقول ان الانكليزية قد اختارت لغرض التعريف احد أسماء الاشارة أيضا ، وهو : ذي (the) ولما كان اثل التنوين هو (آن) وأثل التعريف

والظاهر ان الصيغتين (ها ، وهان) قد اندرستا كأداتين للتعريف لكن بقي من مخلفاتهما (هان) في الفارسية للتحذير او التنبيه ، و (ها) في العربية للتنبيه ، و (هاه) للوعيد ، وباله من تنبيه وتحذير .

قلنا ان اللاتينية كانت تستعمل الاشارة احيانا للتعريف ، واليك منها هذه الصيغ الهائية الثلاث : hoc, hic, haec (والكاف هنا مبدل من التاء كما لا حاجة بنا الى ان نقول) .

لقد افترضنا ان جدنا نزيل الغاب — طيب الله نراه — قال (آن شجرة) بمعنى (هذه الشجرة) ثم بمعنى (الشجرة) . فمهما تنبص لغة (أمن امبر) امصيام في امسفر) المشهورة ، التي سموها ططمطمانية حمير ، لتقص علينا حكاية اخرى مفادها ان ميم (أم) التعريف هنا مبدل من نون (آن) التعريف القدمى .

ولعل هذا ابدال قد جرى عن طريق هذه الحروف الثلاثة (ب،م،ف) وأهل القراءات اعلم الناس بان النون الساكن ينطق ميم قبل الحرفين الاولين في مثل : من بعد ما تبين لهم الهدى ، و : من ما رزقناهم (حتى انها لتكتب : م ما) . وينطق النون قريبا من الميم قبل الحرف الثالث (الفاء) في مثل : ينفقون ..

فمن اجل هذا يكتب الاوربيون النون ميم كما ينطقونه في امثال هذه الاحوال : ambition و sympathy و immortal و symphony

وأيا كانت الطريقة التي يكتب بها الاوربيون فان النون والميم من حروف التناوب أو التبادل ، أي ان مخرجهما متقاربان فلذلك يكثر ابدال أحدهما بالآخر

وبعد كل هذا لا تشرب علينا اذا نحن استنتجنا ان هذه اللغة الميمية الحميرية قد انحدرت من لغة نونية سابقة كانت تقول : انشجرة ، انفيل ، انمکان ، انبيت ، أمن انبر انصيام في انسفر !

وقد بقي من تلك اللغة النونية ان بدو الهلال الخصيب ، وربما غيرهم أيضا ، ما زالوا يقولون (بيت انعامر) على حين ان الحضر ينطقونها : بيت العامر ، و(رجال انزين) والحضر ينطقونها : رجال الزين ، و(ليل انطويل) والحضر ينطقونها : ليل الطويل . وما زلت اذكر بدويا سمعته منذ ثلاثين عاما يذكر اسم الارجنتين : البلد الذي كان اخوه قد هاجر اليه في صباح ، فينطقه (عرج انتين) على اساس ان اثل الاسم (عرق المتين) !

كذلك هو (آن) فمن السهل علينا أن نتصور أن التعريف والتذكير كانا شيئا واحداً أول الأمر ، ولاسيما أن (آن) التعريف اليمينية تلحق الاسماء كالتنوين عندنا بينما (آن - an) التذكير الانكليزية على العكس تسبق الاسم ، كالتعريف عندنا .

ولدينا الآن مثل حي على اختلاط التعريف بالتذكير ، وفي لغة واحدة ، هي الدارجة المغربية .. فهم يقولون : اشترت واحد الفسروج (= اشترت ديكاً) ، وتوصلت بواحد الرسالة (= تلقيت رسالة) ، والمغرب عقد واحد الاتفاقيات الاقتصادية المهمة مع الدول العربية (عقد المغرب اتفاقيات اقتصادية..)

ها هنا اقترن الجمع بالانفراد والتأنيث بالتذكير علاوة على اقتران التعريف بالتذكير . ونتيجة الخلطة في هذه التعبيرات وامثالها هي التذكير ، أي ان لام التعريف عاطل عن العمل .. زائد لغوي .

أما البدوي الذي ذكرنا انه يقول (بيت انعام ، ورجال انزين ، وليل انطويل) فالذي يلوح انه يريد في واقع الامر أن يقول : (بيتن عامر ، ورجالن زين ، وليلن طويل) أي انه يقصد التنوين ، وان الحضري يترجم كلامه الى (بيت العامر ، ورجال الزين ، وليل الطويل) . ولعل هذا يفسر لنا كيف انتقل النون من آخر الاسم الى اوله .

على ان البدوي نفسه يستعمل (ان) للتعريف ايضاً وفي اول الاسم ، على لغة (عرج انتين) ..

ظهور السين

ظهور السين في الضمائر حدث خطير يمثّل بداية مرحلة توسعية في اللغة . ولا ندري بالدقة ما سبب ذلك الانهماك به حتى تعددت وظائفه وتنوعت كتابا هو واحد من الضمائر البدائية الاصلية . وكان اول ما لفت هذا السين نظرنا في الاسماء اللاتينية مثل : calamus (قلم) و oceanus (بحر) . ثم عرفنا السين في الاسماء الاغريقية التي وردت فيها هاتان الكلمتان بصيغة : kalamos و okeanos . وقد تطرق الى وهبنا اولاً ، ان الضمة التي تسبق السين في امثال هذه الالفاظ قد جاءت من الاكدية التي قلنا ان الفاظها تنتهي بالضمة

بوجه عام . لكن اذا كانت الضمة مقتبسة من الاكدية فكيف ظهر معها السين نفسه ؟ سؤال طالما تحيرنا في جوابه .

وعندما درسنا الضمائر بهذه الطريقة الترسيبية (**) !المقارنة تبين لنا ان السين ايضاً من العربية ، ولو ان تأثيره التطوري في العربية ضعيف اذا هو قيس بتأثيره في الآريات وتكوين خصائصها وقواعد نحوها .

ونرجح ان هذا السين ليس بالحرف الاثليل مثل (آ ، نا ، تا) ، ولا هو بالحرف الزائد كالحاء في (نحن) ، وانما هو مبدل من التاء ، أي ان (اوس - us) في اللاتينية = او (آ) + س (ت ، تا) . ويعبارة اوضح أن (اوس - us) ائلهما (اوت) !

والصاق الضمائر بالالفاظ - تصديراً او تذييلاً - امر لم يعد يحتاج فيما نظن الى برهان ، فهي ظاهرة قد عرفناها والفناها بعد الذي رأينا من امثلة كثيرة . وقد رأينا ضمير (ات) يلحق بالاسم اداة للتأنيث ، و (آت) - بالبدل - اداة لجمع المؤنث السالم .

ومثل ذلك فعلوا بضمير (اوت) الذي الحقوه ببعض الاسماء دلالة على المصدرية مثل : كهنوت وجبروت . ومن يدري لعل gelidus, calamus, genius و camelus في اللاتينية انما هي من قول بعض العرب البائدة : جلموت وجنيوت (جني) وقلموت وجليدوت .. بل لعلهم نطقوها جملوس وجنيوس وقلموس وجليدوس ، ايضاً .. ثم اندثروا واندثرت معهم لهجتهم لولا ظهورها في اللاتينية والافريقية .

وكما نجد ضمير (ات) في العربية مفتوح الهزة في (اخوات) ومضمومها في (ملكوت) نجده مكسورها ايضاً في (عفريت نغريت) ، زادوه في (العفر والنفس) توكيدا للمعنى وتقوية لوقعه في النفس .

ان تبادل التاء والسين ليس بدعا في العربية ، فمنه : التهو والسهو ، خات بالمهد وخاس ، الترتل في القراءة والترسل .. ومنه ايضاً النسات والناس ، والاكيات والاكياس (من الكياسة) ، وقد قال شاعرهم :

لا ببارك الله بنبي السعلاة
عمرو بن يربوع شرار الناس
ليسوا باختيار ولا اكيات !

(**) نقصد بالترسيب البحث عن الارساس - جمع رس - أي الجذور الاولى من اللفظ . ولنا كلمة عن الموضوع بعنوان « علم الترسيب » في مكان آخر من هذا العدد من « اللسان العربي » .

ونزعة ابدال التاء سينا تظهر في اللاتينية نفسها ، بل هي قاعدة مطردة في بعض الحالات ، مثل : nation التي تنطق تاؤها سينا بالفرنسية وشينا بالانكليزية ، و negotiation التي تنطق بشينين في الانكليزية ، وتكتب négociation لتنطق بسينين بالفرنسية .

يضاف الى ذلك ان ضمير (أنا — atta) الذي يعني بالاكديّة (انت) ينطق بالايطالية (essa) بمعنى (هي) ، و esso . بمعنى (هو) .

اس — us

على ما تقدم لا نستغرب اذا وجدنا هذا ابدال بين الحرفين قد وقع في العربية نفسها قبل انتقال الضمير الى اللاتينية . فالواقع أننا نجد بعض الاسماء العربية قد زيد فيها (اس ، واوس ، وايس) مثل : القسطاس والمعيطموس (= التامة الخلق من ابل والنساء) ، والدربيس (= الداهية والشيخ والمعجوز الفانية) .. تقابلها في اللاتينية اسماء اضيف اليها هذا الضمير بصورة الثلاث هذه ، مثل : habitas (مقدرة) ، و justus (عادل) ، وائلهسا القسطاس الأنفة الذكر) ، و carnis (لحم) .

ويطالعنا هذا الضمير في العربية بصيغته السينية الثلاث واضحا صريحا في كلمة واحدة هي (الاس) — بفتح الهمزة وضمها وكسرها ! — بمعنى الاصل والاساس . واستعماله بهذا المعنى لا يثير عجبنا لان اطلاق الضمير العام على الامور الجوهرية (الاساسية) مألوف في اللغات . وقد اطلق المتصوفة العرب ضمير (هو) على ذات الله ، وطالما رددوا في اذكارهم : ياهو ، ياهو ..

وكذلك فعل الاكديون من قبل يوم اطلقوا ضمير (ايا — Ea) على (الماء العذب) اكبر آلهتهم، ونفس الكلمة (ea) تعني باللاتينية ضمير الغائبة وتنطق بالعربية (هي) ! وواضح ان اللفظة انما كانت قد اطلقت على الاله البابلي الكبير عندما كانت تعني عندهم الضمير العام ، او ضمير الغائب الذكر كما في الانكليزية (هي — he) هو .

ومن صور (الاس) نجد في الايطالية ضميري essa (هي) و esso (هو) اللذين سبق ذكرهما . ومن صور (الاس) في اللاتينية : esse — بتشديد السين ايضا — بمعنى : يكون . ومنها في اللغات الاوربية الحديثة essence بمعنى قريب

جدا من المعنى العربي : الذات ، الجوهر ، العنصر ، الخلاصة ..

والحقيقة ان الكلمة تعني الضمير والكينونة والوجود بالعربية ايضا في صورة (ايس) الباقية لدينا في (ليس) ! وما نتول هذا من عند نفسنا وانما هو امر معروف لدى اهل الصنعة ، وقديما قال لغويناس الكبير الفراهيدي — الخليل بن احمد — ان (ليس) اصلها (لا ايس) مستشهدا بقول العرب : « اثنتي به من حيث ايس ولا ايس ، أي من حيث هو ولا هو .. اي من حيث يوجد ولا يوجد ، او من حيث يكون ولا يكون . وتوله : « من حيث هو ولا هو » يدل على ان (ايس) ضمير فعلا . يؤيد ذلك ان كان بحاجة السى تأييد انه ورد في الفارسية بصورة (ايش) ضميرا متصلا بمعنى (هو) ايضا . وجمعه (ايشان) ينبىء انه كان في الاثل (ايش) كائله العربي (ايس) .

وظائف السين

ويتوزع السين على كثير من الالفاظ الاوربية، يتصدرها حيناً من قبيل (se) التي تسبق بعض الافعال في الفرنسية — وغيرها — بمعنى نفس او ذات مثل : se lever : يرفع نفسه (= ينهض) ، و s'appeler : ينادي نفسه (= يتسمى) ، يدعى) .. ويذيلها حيناً كالسين الذي يلتحق بآخر الاسماء علامة للجمع في الفرنسية والانكليزية والاسبانية .

ويحتل السين مكانة خاصة غريبة في الجملة الانكليزية ، فهو يلتحق بالفاعل علامة جمع او بالفعل علامة افراد ! المهم ان هذا السين لا بد منه في الجملة الفعلية المضارعة فان لم يظهر على الاسم ظهر على الفعل ليؤدي في كل من الحالتين وظيفة مناضفة للآخرى . تقول : The girls play : الصبايا يلعبن . فاذا اردت ان تقول الصبية تلعب ، حيث لا يمكن استعمال السين للجمع اضطررت الى سحبه من آخر الاسم الى آخر الفعل فتقول The girl plays كذلك الحال في قولك The girls have played : لعبت الصبايا ، و The girl has played : لعبت الصبية . وكذلك الحال في الجملة الاسمية ايضا حيث تقول The girls are playing : الصبايا لاعبات ، و The girl is playing : الصبية لاعبة .. كأنها السين هو ملح الارض

بالنسبة الى الجملة الانكليزية لا غنى عنه في طعام سائغ ، اي عبارة سليمة .

وهذا الفعل المساعد (is) الذي يظهر في الجملة الانكليزية الاسمية يذكرنا بنظيره (اس) في الفارسية الشيرازية الذي يؤدي نفس المعنى في الجملة الاسمية مثل : هوا سرداس (= الهواء سرد ، اي : الجو بارد) .

فعل الكينونة

هنا تطل علينا برأسها ظاهرة لغوية خطيرة تجيبنا على هذا السؤال الذي طالما ألح على أذهان اللغويين فلم يجدوا له جوابا : كيف حدث أن أصبحت الجملة الاسمية في الآريات تعتمد على فعل الكينونة ، خلفا للساميات ؟

في الآريات لا يقولون : انا هنا ، بل يقولون : انا اكون هنا . ولا يقولون : الغائب معذور ، والرجال توامون ، وأنتم الناس ايها الشعراء .. وانما يقولون : الغائب (يكون) معذورا ، والرجال (يكونون) توامين ، وأنتم (تكونون) الناس ايها الشعراء .

وبتعبير آخر لا توجد في الآريات جملة اسمية ، لانهم يدخلون في الجملة الاسمية هذا الذي يسمونه **الفعل المساعد** بمعنى (كائن) أو (يكون) ليستقر التعبير ويستوي عندهم .

أفليس عجيبا جدا أن تكون هذه الخصلة اللغوية التي تعد في طليعة الخصائص التي يذكرها علماء اللغة بين الخصال التي تميز بها اللغات الآرية عن العربية وبقية الساميات — ليس عجيبا جدا أن تكون منحدره من ارومة عربية صميّة ؟

إذا تحرينا فعل الكينونة للغائب في الآريات — الانكليزية والفرنسية والفارسية — وجدنا أنه من (الاس) الذي مر بنا حديثه . وهو يطالعنا بصورة (est) في الفرنسية ، و(است) في الفارسية الرسمية ، و (اس) في فارسية شيراز ، و (is) في الانكليزية . وهذه الاخيرة علاقتها واضحة لفظا ومعنى باللاتينية (esse) — يكون — ومن ثم بالعربية (اس) .

واما صيغة (است) في الفرنسية والفارسية فيدهشنا ان نجدها في العربية أيضا (الاست) بمعنى الاساس والاصل ، اي انها متطورة من (الاس) بنفس معناه . وبعبارة اخرى ان (است — est)

في الفارسية والفرنسية ليست تطورا آريا لكلمة (الاس) وانما هي اقتباس مباشر من التطوير العربي ، وان كل ما فعلته الآريات هو انما تشبّثت بهذه الكلمة بصيغتها (الاس والاست) حتى جعلتها لازمة للجملة الاسمية مثل لزوم الشين الذي تشبّثت به اللهجة المصرية والمغربية في حالات النفي .

ومهما يكن فاننا نجد الصيغتين (اس و است) ككتيبيهما في الفارسية بمعنى الكينونة للغائب ، فهم يقولون : (كتاب مفيد است) بالفصحى الرسمية ، و(كتاب مفيد اس) بلهجة شيراز . وكنا نظن لفة شيراز هذه عالية مخففة من الفصحى ، غير أننا سرنا نرجح ان لفة شيراز اثيلة مستقلة اي انها من (الاس) مثل (is) الانكليزية و (esse) اللاتينية ، كما ان (است) الفارسية ونظيرتها (est) الفرنسية اثلهما (الاست) .

وجدير بالذكر ان همزة (اس واست) تكون في الفارسية همزة وصل في مثل (كتاب مفيداس ، أو مفيداست) فانهم ينطقونها : مفيدس ، ومفيدست . وانما تكون همزة طمع في مثل : أن عمارت مدرسه است ، اي : تلك العمارة مدرسة .

وإذا اتخذنا هذا منطلقا لدراسة نشوء فعل الكينونة في الآريات نجد في هذه العبارة مثلا ان (اس ، واست) كانا ضميرين يلحقان بالالفاظ الفارسية بمعنى (هو) . ويؤكد لنا ذلك ان (اس) ما زال ضميرا متصلا بهذا المعنى في الفارسية بصورة (اش) الذي قلنا ان ائله (ايس) العربي .

لكن فعل الكينونة ، او ضمير الكينونة — والانفصال ان نسميه اداة الكينونة — تسهلا للتعبير ودفعا لكل التباس — نعم ان اداة الكينونة تختلف صيغها باختلاف حالات الامراد والجمع لكل من المتكلم والمخاطب والغائب ، اي ان كل واحد من الضمائر المنفصلة له اداة الكينونة الخاصة به : وهي في الفارسية نفس الضمائر المتصلة بالانعمال في مختلف تلك الحالات .

الكينونة في الفارسية

ولعل الفارسية أقدر اللغات الآرية على ارشادنا الى كيفية نشوء ادوات الكينونة . وايضاها للفكرة ندرج فيما يلي الضمائر المنفصلة في الفارسية يلي كلا منها نظيره المتصل (الذي هو في الجملة الفعلية ضمير متصل وفي الجملة الاسمية اداة كينونة) :

الضمير المنفصل

المتصل (والكينونة)

| | | |
|--------|-------|----------|
| أنا : | من | أم |
| نحن : | ما | أيم |
| أنت : | تو | أي |
| انتم : | شما | أيد |
| هو : | او | أست (أس) |
| هم : | ایشان | آند |

ففي الجملة الفعلية نقول :

| | |
|------------------|------------|
| رفتم ، رفته أم | ذهبت (أنا) |
| رفتم ، رفته أيم | ذهبتنا |
| رفتي ، رفته أي | ذهبت (أنت) |
| رفتید ، رفته أید | ذهبتهم |
| رفت ، رفته أست | ذهب |
| رفتند ، رفته آند | ذهبوا |

وفي الجملة الاسمية نقول :

| | |
|----------|-------------|
| متشكرم | شاكر أنا |
| متشكریم | شاكرون نحن |
| متشكري | شاكر أنت |
| متشكرید | شاكرون انتم |
| متشكراست | شاكر هو |
| متشكرند | شاكرون هم |

ويلاحظ ان الضمير المنفصل لا يستعمل عادة في الجملة الفعلية عند وجود الضمير المتصل الذي يؤدي معناه ، فلا يقال : نحن كتبنا ، وهم ذهبوا الا في حالة التأكيد . وانما نقول عادة : كتبنا ، وذهبوا ، ورايتنا ..

وليس هذا قاصرا على العربية بل الامر كذلك في الفارسية واللاتينية وغيرها من اللغات التي توجد فيها ضمائر واضحة متميزة ، متصلة بالانفعال .

ان بعض اللغات لا توجد فيها ضمائر متصلة أصلا كالانكليزية التي توجد كل الضمائر فيها منفصلة . اما العربية فقد اخذت بنظام وصل الضمائر بالانفعال لتدل السامع على من يخبر عنه الفعل . لكن الضمائر لا تتصل بالاسماء العربية . واما في الفارسية فتتصل الضمائر بالاسم أيضا ، اي الصفة ، — لتؤدي نفس الوظيفة — اي لتدل السامع على من تخبر عنه الصفة ، كما

راينا في متشكرم ، متشكریم .. (شاكر أنا ، شاكرون نحن ..)

وكانت النتيجة ان الضمائر المتصلة التصقت بالاسم كما التصقت بالفعل ، واصبحت ضرورية لتكوين الجملة الاسمية ولو لم يكن المعنى بحاجة الى وجودها ، عند ذكر الشخص المقصود بها . اي انها فقدت وظيفتها واكتسبت وظيفة أخرى رمزية اشبه بوظيفة شين النفي . ويتعبر اوضح تليلا ان اداة الكينونة بالنسبة الى المتكلم العربي ليست الا (زائدا لغويا) بقي مستعملا في الآريات بحكم العادة والاستمرارية . فنحن نقول (الكتاب مفيد) دون ان نشعر ان هذا التعبير ينقصه شيء ليقم أو يستقر . لكن المتكلم الإيراني لا يشعر باستواء التعبير وراحة النفس ما لم يضيف ضمير الكينونة (است) ، فعندها يقول (كتاب مفيد است) ويتنفس الصعداء .. شأن المصري الذي يشعر بعدم الارتياح اذا قال (مالي دعوة) ، وانما يستقر الامر في نصابه عندما يقول (ماليش دعوة) . وهذا شأن سائر الناطقين بالشرين طبعاً من مغاربة وغيرهم ، ان كان هناك غيرهم أيضا .

فاذا كان القارئ الكريم يتفق معنا في القول بان ادوات الكينونة انما هي ضمائر في الاثـمـل — ونحسب الادلة السالفة كافية لاتناعه بذلك — فلا بد ان ذلك يستتبع اتفاهه معنا كذلك على ان العبارات الآتفة الذكر : الغائب معذور ، والرجال قوامون ، وانتم الناس .. لا تعني في الآريات : الغائب يكون معذورا ، والرجال يكونون قوامين ، وانتم تكونون الناس .. كالذي يظن نحاتهم وانما الصحيح ان معناها الحقيقي الاتلي : الغائب هو معذور ، والرجال هم قوامون ، وانتم انتم الناس .. وهذا يصدق على الآريات الاوربية التي يقع ضمير الكينونة فيها بين المبتدا والخبر ، واما في الفارسية التي يقع فيها ضمير الكينونة عادة بعد الخبر فتكون ترجمة العبارات المذكورة بالنسبة اليها هكذا : الغائب معذور هو ، الرجال قوامون هم ، انتم الناس انتم ..

وانما سموها افعالا لانهم وجدوا لها صورا للماضي غير صيغ المضارع والمستقبل فتوهبوا ان اختلاف الصور ضرب من الصرف ! ومع هذا شعر نحاتهم — النحاة الانكليز مثلا — انها ليست افعالا بالمعنى الصحيح فسموها افعالا مساعدة .

وصفوة القول انها ضمائر انقلبت شبه افعال .

وأما في الفرنسية فإن أدوات الكينونة كما يلي :

أنا : suis = سو (تو ، تا) + اي (آ)
+ س (تا) .

نحن : sommes = سو (تو ، تا) + م (نا)
+ اي (آ) + س (تا) .

أنت : es = اس = اي (آ) + س (تا) .

أنتم : ettes = اي (آ) + ت (تا) + اي (آ)
+ س (تا) .

هو هي } est = است = (آ) + س (تا) + ت (تا)

هم : sont = سو (تو ، تا) + ن (نا) +
ت (تا) .

فعل التملك

ونضيف الى حديثنا هذا عن (أفعال) الكينونة كلمة عن (أفعال) مساعدة شبيهة بها في الآريات وقد ترجموا اسمها الى العربية : (أفعال التملك) ، لكننا نؤثر أن نسميها (أدوات المعنية) لأن ترجمة هذه الأفعال ليست (أنا املك ، أنت تملك) ولكن (عندي ، عندك) .

والآريون يضيفون هذه الأدوات الى الفعل لتزمينه اي لتحديد زمنه . وهي على اختلافها في الآريات تنتمي اثلا الى الضمائر أيضا ..

وهي في الفرنسية نفس الضمائر المتصلة . وهذا معناه أن الضمائر المتصلة تؤدي في الفرنسية ثلاث وظائف : الأولى تعيين فاعل الفعل ، والثانية أداء معنى الكينونة في الجملة الاسمية ، والثالثة ترميز الفعل .

أما في الآريات الأخرى — ولناخذ منها الانكليزية والفرنسية — فإن أدوات المعنية ضمائر خاصة بوظيفة ترميز الفعل ، وإنما سموها أفعالا كأدوات الكينونة لأن صيغها تختلف كذلك باختلاف زمان الفعل .

وندرج فيما يلي أدوات التزمين في الانكليزية مع مختلف الضمائر في حالة المضارع :

أنا ، نحن أنتم ، هم : have = ها (آ) +
و (آ) .

أنت : hast = ها (آ) + س (ت ، تا)
+ ت (تا) .

أي أنها ضمائر فقدت ضميرتها ، ثم أصبحت أفعالا بلا فعلية .. لها من الفعل تصريفه الزمني وليس لها دلالة على عمل شيء .

إن أداة الكينونة شيء لا هو بالضمير حقيقة ولا هو بالفعل وأتعبا — خنثى . أو هي شيء بين الفعل والضمير : أشبه بالحيوان النباتي .. كالحيوان يتحرك ويصيد ، وكالنبات ثابت في الأرض لا يملك انتقالا من موضعه .

الكينونة في سائر الآريات :

على أن نشوء أدوات الكينونة من الضمائر في سائر الآريات ليس يمثل هذا الوضوح والإطراد الذي شهدناه في الفرنسية . فإن أدوات الكينونة فيها — في الانكليزية والفرنسية والإيطالية مثلا — ليست هي الضمائر المتصلة نفسها ، وإنما هي ضمائر أخرى اختيرت ، بطريق الانتخاب الطبيعي في التطور ، من الصيغ الكثيرة المتنوعة التي تولد بعضها من بعض بسبب تلبل الالسنة واختلاف اللهجات .

وسبب ذلك هو إما أن اللغة ليست فيها ضمائر متصلة كالانكليزية ، وإما أن الضمائر المتصلة فيها ليست من الوضوح والكفاءة بحيث تستطيع وحدها أداء المعنى بمجرد ذكرها مع الفعل كما هي الحال في الفرنسية التي أصبح فيها الضمير المتصل بالفعل مجرد علامة لا تغني عن ذكر الضمير المنفصل معها للدلالة على الشخص المقصود هل هو المتكلم أم المخاطب أم الغائب ، الفرد أم الجمع ، ولو أن كل واحدة من هاته الحالات لها ضميرها المتصل الخاص بها . وبعبارة آخر أن الضمير المتصل قد أصبح في الفرنسية (زائدا لغويا) هو الآخر . فمن أجل هذا استعملوا ضمائر أخرى لأداء معنى الكينونة في الجملة الاسمية .

وندرج فيما يلي أدوات الكينونة في الانكليزية المستعملة مع مختلف الضمائر :

أنا : am = آ + م (نا) .

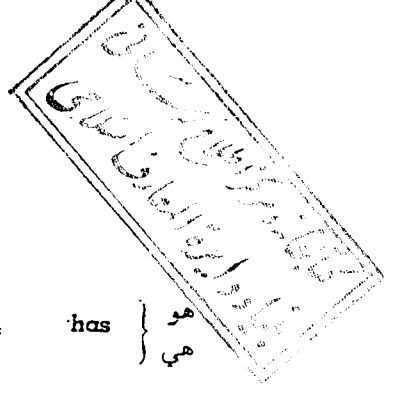
نحن : are = آ + ر (زائدة ، أو مبدلة من اللام : نا) .

أنت : art = آ + ر (كذا) + ت (تا) .

أنتم : are (آنا) .

هو هي } is = اي (آ) + ز (ت ، تا)

هم : are (آنا) .



هو } has = ها (آ) + س (ت ، تا) .
هي }

وأما في الفرنسية فأدوات التزمين للمضارع كما يلي :

أنا : ai = آ

نحن : avons = آ + وو (آ) + ن (نا) + س (ت ، تا) .

أنت : es = آ .

أنتم : avez = آ + وي (آ) + ز (ت ، تا)

هو } : α = آ .

هي } : ont = آ + ن (نا) + ت (تا) .

اختلافها عن العربية :

والذي نتوهمه بعد كل الذي رأيناه من نشوء الضمائر وتطوراتها وهجراتها ان ظاهرتي التزمين والتكنين هاتين ليستا من صنع الآريات وانما هي من نتاج المصير اليعربي . ولا نقصد (ادوات) التزمين والتكنين نفسها ؛ فان هذه الادوات وغيرها قد مرغنا من اثبات عربيتها ؛ لكننا انما نقصد الآن عربوية ظاهرتي التزمين والتكنين كتقاعدتين لغويتين .

لقد رأينا ان هذه الآريات انما تتفق في وجود هاتين القاعدتين فيها لكنها تتباين في الطريقة وتختلف في الادوات التي تستعملها لهذا الغرض — مما يدل على وحدة اصولها مع تعدد فروعها . اي ان الآريات قد اقتبست الفكرة (القاعدة) من منبع واحد .

وما دامت الادوات نفسها عربية فلنا ان نظن ان هذا المنبع الواحد الذي صدرت عنه (القاعدة) هو العربية ايضا .

والظاهر ان الاعربين الاقدمين كانوا يستعملون ادوات التزمين والتكنين لكن كل طائفة منهم استعملت ضمائرهم الخاصة بها .

وقد خضعت هذه الادوات التزمينية والتكنينية لما خضعت له سائر الضمائر والمفردات اللغوية من تشابه وتباين وتحريف لفظ وتحوير معنى بنتيجة تطورات الاختلاط والتنقل .

وقد هاجر من العربية نفر من كل طائفة من

تلك الطوائف ؛ في اوقات مختلفة وحملوا معهم آثارا من كل ذلك بقي منها ما بقي في الآريات . أما في المعربة نفسها فقد اندرس ما اندرس من تلك اللهجات اما لان اصحابها قد غادروا المعربة كلهم ، واما لان من بقي منهم فيها قد اندمج في المجموعة اللغوية التي خلفتها لنا الاحقاب . ولاسيما ان نزعة الابداز والتركيب اخذت تظهر في العربية وتتمكن من السنة اصحابها فاستقلوا الادوات التوكيئية اي التي يتوكأ عليها المتكلم في كلامه ، ومن جراء ذلك سماها الانكليز مثلا بالانفعال المساعدة (Auxiliary Verbs) كالذي نلنا .

ولعل حركات الاعراب التي رأينا أننا منها من بقايا الضمائر كانت قد استعملت في العربية اول الامر للتزمين او التكنين او كليهما في حقبة ما ثم تغيرت وظيفتها . ويلاحظ ان حركات الاعراب داخلية في الجملة العربية ، اي انها توجد في داخل الجملة فقط، اما اذا وقعت احداها في آخر الجملة فحكما ان تحذف او تخفف ؛ وذلك بحذف حركة آخرها ان كانت متحركة وحذف النون منها مع الحركة التي تسبقه ان كانت منونة (عدا الفتحة التي تبقى بعد حذف النون).

وما هذا الحذف الا امتداد لنزعة الابداز التي تضمت على ادوات التزمين والتكنين وغيرها في العربية على ما يظهر .. بينما اللغات الأخرى التي كانت تحرك أواخر الكلمات كانت تحتفظ بالحركة عادة حتى عند الوقف كالاكديّة التي كانت تضم أواخر الالفاظ والارمية الغربية التي ترتفها والارمية الشرقية التي تفتحها — كالذي مر بنا حديثه .

على ان بعض الاعربين كانوا قد استقلوا حركات الاعراب ايضا بوجه عام ؛ ثم صار ذلك شأن العرب اجمعين في لغاتهم الدارجة اليوم ؛ وهذا امتداد آخر لنزعة الابداز ؛ وقد ساعدت عليه مخالطة الاعاجم ايضا . ولولا الاسلام والقرآن وما جرى بسببهما من جمع وتدوين ووضع قواعد لما عرفنا اليوم شيئا عن هذه النصحي التي ننفق ما ننفق من جهد في تعلم صرفنا ونحوها ؛ بل لانفقنا مثل هذا الجهد في تعلم الدارجة المحلية بدلا منها ؛ ولضجاع علينا كل التراث الجاهلي وكل ما قام عليه من تراث .

ولئن كانت العربية قد تخلصت من هذه الرواسب اللغوية التطورية — التكنينية والتزمينية — التي احتفظ بها ابناء عمومنا الآريون ؛ فان حركات الاعراب ليست هي الأخرى الا رواسب تطورية

يستطيع أحد أن يتعلمه كاملا من قواعد الصرف والنحو على حالها الحاضرة ، التي يتطلب التخصص فيها من الزمن ما يكفي للتخصص في الطب أو الذرة .

وعسى ألا يتوهم متوهم أننا بهذا نقضي على لغتنا أو نهدم حياضها ، وإنما نعتد قواعدنا وصعوبة تعلمها مع ضيق وقت التلميذ هو الذي سيفضي إلى انحلال اللغة وضياعها كالذي أصاب اللاتينية . ولا سبيل لنا إلى المحافظة عليها وانتاذا ما يمكن انتقاذه منها إلا بتيسيرها . وقد تحدث الكثيرون فيما ينبغي نذه أو تعديله من قواعدنا فلا حاجة بنا إلى الانفاضة فيه ..

ايجاز العربية

نزعة التركيز والايجاز في العربية قد اعترضت سبيلنا غير مرة في حديثنا هذا عن الضمائر واسرارها مما ماتاها ؟

يبدو أن هذا التركيز في المعاني الكبيرة يوعيونها العبارات الصغيرة كأنها حبوب الطعام المركز للرحلات القبطية أو الفضائية — يبدو انه امتداد لنزعة عربية قديمة العهد ، نجد آثارها في اسقاطهم بعض أدوات الكلام التي تعتبر ضرورية في التعابير الاعجمية بوجه عام . من ذلك مثلا قولك : لا احب الرجل يهزل وقت الجد (بدلا من : لا احب الرجل الذي يهزل وقت الجد) ، وقولك : ذهبوا يجاهدون (بدلا من : ذهبوا كي يجاهدوا) ، وقولك : شرعت اقرأ (بدلا من : شرعت أن اقرأ) ..

ان اسقاط الذي وكفي و أن ، يجعل الكلام في العربية أفصح وواقع الا انه لا يجوز في الانكليزية مثلا.

فلا عجب أن اسقط العرب أدوات التكنين والتزمين وهي اشبه بالزوائد اللغوية منها بأي شيء آخر .

ومهما يكن فإن هذه الخصلة — نزعة الايجاز — طارئة في العربية ، بدليل انها لا توجد في الآريات المنسلخة منها باعتبار ان هذه الرواسب والزوائد التي نجدها في الآريات ترجع باثلها إلى العربية نفسها كما قلنا .

وهذا معناه فيما يخيل لنا ان الآريات قد انشعبت من الاعربية منذ عهود سحيقة اي منذ الهجرات الاولى حين أخذت المعربة بالجفاف على اثر انحصار الجليد عن أوربا . وكانت اللغة الاعربية عهدئذ على حالتها الطبيعية الاعتيادية الاولى . غير أن الجفاف وتحول

مشابهة في العربية ، وما تزال آثار منها مخلقة في بعض اللغات الاوربية كالالمانية والاطالية والروسية.. لكن بدرجات متفاوتة وطرائق متباينة .

والنتيجة النهائية التي حصلت بيدنا الآن هي ان بعض اللغات احتفظت بالتزمين والتكنين وتخلصت من الاعراب كالفارسية والانكليزية .. وبعضها احتفظت بالاعراب وتخلصت من التزمين والتكنين كمنصحننا العربية .. وبعضها احتفظت بالتكنين والتزمين بالاضافة الى حركات الاعراب كالالمانية .. وبعضها تخلصت من هذه الرواسب جميعا كلغاتنا الدارجة بوجه عام وبعض اللهجات العربية القديمة .

الفصحى

واذا سألنا الآن ايها تفضل ؟ لم نتردد في ايثار نصحنانا . ولا نحب الدخول في جدال طويل بهذا الشأن. فربما كان سبب ايثارنا ايها عاطفيا محتا لانها لغتنا التي الفنا القراءة والكتابة بها ولسراوتها بالقياس الى مستوى العاميات . وربما كان سبب ايثارنا لها ما تمتاز به حقا من رصانة ودقة وعمق ومرونة وتركيز .. وذخيرة هائلة من المفردات والتعابير .. عدا ما فيها من اسرار الاستتاق وروائعه .

أما الاعراب فلا نعهده من سينات الفصحى ولاسيما ان الاقدمين قد خففوا وطأتهلنا بالتخلي عنه في اواخر الكلام اي بالوقف على السكون . أما وجود الحركات من داخل الجملة فالأغلب انه لاينافى الاقتصاد في اللفظ لان الاوروبيين انفسهم لا يجدون مناصا عند التقاء ساكنين من تحريك أولهما أو ما قبله بكسرة خفيفة كالذي نفعله نحن في دارجائنا .. حتى ان ضرورة التحريك هذه قد جعلت بعض القدامى من اللغويين العرب يظنون ان حركات الاعراب انما نجمت في العربية من هذه الضرورة .

لكن هذا لا يمنعنا من القول ان بعض قواعد الاعراب والبناء بحاجة الى شيء من تعديل وتنسيق وتنقية من الشوائب والشواذ . وقد حقق نحائنا الرواد الاوائل من ذلك ما يستأهلون عليه الثناء والتقدير حين نفوا الكثير من بدوات اللهجات الخاصة ونبذوا بعض النواشز آخذين بالاعم الاغلب .

وأحسبنا الآن بحاجة الى اعادة الكرة ليتسم نحائنا المعاصرون ما بداه أسلانهم فيجاروا ضرورات العصر تنسيقا وتعديلا وتيسيرا . فان تنوع العلوم اليوم جعل وقت التلميذ اثن من ان يتفقه فيما لم

- الجنة المعربية الى صحراء قاحلة محترقة محترقة جيلا بعد جيل ، وما استتبع ذلك من تسوة الطبيعة ومشاكل العيش وأخطاره وغزواته ومفاجئاته جعلت القوم اميل الى الاقتصاد في الكلام ولاسيما في الحالات التي تتطلب المسارعة والمبادرة الى عمل او قتال او فرار . لهذا نجد البدوي يتكلم نتلا ، فاذا هو حدثك عن تسوء مهما يكن تافها او بعيدا عن الاثارة كقوله مثلا : شربت الماء ، او سأنام ، او طارت الجرادة ، او مات جدي قبل سنتين سنة .. تلحظ انه يقول ذلك بالفاظ توية اللحن يقذفها من فمه تذف الحجارة من المتلاع ، وينيرة اشبه بلهجة الامر منها بلهجة الخبر ، كأنها هي الایعازات العسكرية الفورية في ساحة المعركة ، وكأنها هو يقول : شب الحريق ، هاهو العدو ، اضرب ، اركب ، اسرع ..

هذا ما يعن لنا الآن في تحليل خصلة الایجاز التي تتسم بها العربية ، نذكره بتحفظ ، وقد يكشف لنا البحث عن تحليل أوجه منه في المستقبل . والله اعلم !

الضمائر الارية

جميع الضمائر المنفصلة ، في حالة المنسد اليه - نعم جميعها - يمكن ارجاعها في الفارسية والانكليزية والفرنسية والاطالية ، الى عناصرها الاولى من العربية . ومثل هذا يقال بشأن الكثير من الضمائر الاخرى في لغات آريات اخريات ، وغير آريات بله الحاميات والساميات .

فأما في الفارسية فهي :

- انا : من = ما (نا) + ن (نا) .
نحن : ما = (نا) .
انت : تو = (تا) .

انتم : شما = شو (تو ، تا) + ما (نا) (وكانها من التاء والميم في قولك بالعربية : نظرتما) .

- هم : آنان = آن (آ) + نا) + آن (آ) + نا) .
هم : ايشان = ايش (اي ، آ) + ش (س ، سا) + آن (آ) + نا) .
هم : آنها = آ) + نا) + ها (آ) .

وأما في الانكليزية فهي :

- أنا : I (آي) = آ .
نحن : we = اي (آ) .

- انت : thou = ذو (تو ، تا) .
انتم : you = يو (او ، آ) .
هو : he = (اي ، آ) .
هي : she = شي (تي : تا) .
هو ، هي (الغير المعادل) : it = اي (آ) + ت (تا) .
هم : they = ذي (تي ، تا) .

وأما في الفرنسية فهي :

- أنا : je = يي (اي ، آ) .
نحن : nous = نو (نا) + س (ت ، تا) .
أنت : tu = تو (تا) .
انتم : vous = يو (او ، آ - كالانكليزية) + س (ت ، تا) .
هو : il = اي (آ) + ل (ن ، نا) (راجع لام التعريف آنفا) .
هي : elle = اي (آ) + ل (ن ، نا) .
هم : ils = اي (آ) + ل (ن ، نا) + س (تا) .
هن : elles = اي (آ) + ل (ن ، نا) + س (تا) .

وهي في الايطالية :

- أنا : io = اي (آ) + يو (او ، آ) .
نحن : noi = نويي) = نو (نا) + اي (آ) .
انت : tu = تو (تا) .
انتم : voi = يو (آ) + اي (آ) .
هو : esso = اي (آ) + سو (تو ، تا) .
هي : essa = اي (آ) + سا (تا) .
هم : loro = لو (نو ، نا) + رو (لعل اثلها : لو ، نو ، نا) .

اسماء الاشارة

تلنا ان (الهزة) استعملت ضميرا عاما واسم اشارة . وقد كان من جراء استعمالها اداة تنبيه بصيغة (ها) ان فقدت معناها للاشارة ، غير أنها لصقت ببعض اسماء الاشارة مثل : هذا ، هذه ، هؤلاء - فقلنا يقول المحدثون : ذا ، ذه ، اولاء . حتى في الفصحى .

وأما (النون) فلا نراه في العربية اسما للاشارة او جزءا من اسماء الاشارة المتعارفة ، لكننا نجد في بعض الاسماء التي (تشير) الى الزمان او المكان الحاضرين مثل : هنا (= او + نا) ، وهي

تصوير هجسات الضمير وخلجات الذهن — كان هو نفسه يعاني فقرا لغويا كبيرا ، فما اكتفى باستعمال كل واحد من الضمائر القليلة التي يملكها ضميرا عاما واسم اشارة ، وانما استعمالها بالاضافة الى ذلك في اشقات من المعاني الاخرى التي عرضت له على طريقة الراعي التي نوهنا بها ، في استعمال عصاه ...

وقد دام ذلك احتجابا مديدة فيما يبدو ، لان تعدد المعاني التي استعملت فيها الصيغة الواحدة لم يقتصر على الضمائر البدائية العنصرية (آ ، نا ، تا) وانما شمل صيغها المتطورة ثم المركبة ، التي لا بد انها لم تنشأ الا بعد مرور اجيال كثيرة . حتى ان ضمير (انت) الذي اعتبرناه اكمل صور تركيب الضمائر قد استعمل ضميرا عاما كالضمائر البدائية ، ثم استعمل في معان اخرى غير الضمير والاشارة ، كما سنذكر بعد .. مما يدل على ان طفولة اللغة قد استغرقت زمتا طويلا ، وانها لم تتقدم الا ببطء شديد .

وبعض هذه المعاني قريب من معاني الاشارة والضمير كالذي رأينا وبعضها بعيد عنها لا صلة له بها كالذي سنرى . وما كنا لنقدم على القول ان هذه المعاني البعيدة ترجع في اثلها الى الضمائر لولا ان صيغها يقود بعضها الى بعض من حيث المعنى او المبنى ، ولولا ما مر بنا من كثرة تخبطات الاعراب الاقدم التي تستدر الرثاء من جهة وتشبثاته الجريئة التي تستحق العطف والاعجاب من جهة اخرى .

ولابد ان كثرة اخطائه في نطق الالفاظ على غير وجهها واستعمالها في غير معانيها قد سبب له الكثير من سوء التفاهم وضرب الهراوات : الا ان لهذه الاخطاء المباركة فضلا كبيرا في خلق صيغ جديدة ، ساعد التركيب اللغوي على تكثيرها ، فاستعملت في معان جديدة او تخصصت في معان قديمة .. كالذي مرت بنا شواهد متنوعة منه .

الهزمة

وقد رأينا ان الهزمة استعملت للتنبيه اولا ، ثم للنداء ، ثم للضمير ، ثم للاستفهام والايجاب .

ومن توليداتها — عدا كل ذلك — واو العطف الذي كان اولا (او) كما لا يزال العرب ينطقونه في الدارجات ، ثم ظهرت منه صيغة (و) فتخصصت بعطف الجمع كما تخصصت (او) — بفتح الهزمة — بعطف الشك كما يسميه النحاة . وينطقها بعضهم في العراق

بالانكليزية : here (بإبدال النون راء) .. ومثل الآن (= آ + نا) ، ومنها : الاوان ، والفعل آن اونا (= تمهل) و : آن ايننا (= حان) . وهي بالانكليزية now (مقلوب الاون) بمعنى : الآن .

وانما يختص النون بمعنى الاشارة في الفارسية ، على هذا النحو :

اين : هذا .

آن : ذلك .

اينان : هؤلاء (للمعقل) .

اينها : هؤلاء (لغيره) .

آنان : اولئك (للمعقل) .

آنها : اولئك (لغيره) .

غير ان (التاء) هي الضمير الخصب الذي اختص بمعنى الاشارة في صيغ شتى ولاسيما في العربية والانكليزية :

ونجدها في العربية باسب صورها واقدمها (تا)

بمعنى هذه ، ومنها : (تي) بنفس المعنى . وتثنى على : تان وتين . ومبا تيك ، وهاتيك ثم تلك .

وقد ابدلت التاء ذالا فنشأت صيغة (ذا) واختصت بالذكر ، و (ذي) واختصت بالانثى ، ومنها (ذه) بنفس المعنى .

وتعتمد الانكليزية كل الاعتقاد على هذه الاداة الاشارية الذاتية فتصوغ منها جميع اسماء الاشارة فيها ، مثل اعتماد الفارسية على الاداة النونية . يقول الانكليز :

this : هذا .

that : ذاك

these : هؤلاء

those : اولئك .

واما الفرنسية فقد اتخذت التاء مادة لاسماء الاشارة فيها لكن بعد ابدالها سينا وهي : ce و ce. و cet. و cette. و ces. ، لختلف حالات الامراد والجمع والتذكير والتأنيث . وهذا برهان آخر على ما سبق ان قلناه من ان (السين) في الضمائر الآرية يرجع في اثلها الى (التاء) .

واما في الايطالية فنذكر صيغة cosi : كذا.

معان اخرى

جدنا العربي الذي بدأ مشروع تشييد هذا الصرح الباذخ لاروع اللغات واغناها واقدرها على

- o : أو (حرف العطف) — بالابيطالية .
 or : أو — بالانكليزية .
 ou : أو — بالفرنسية .
 ou : أين — بالفرنسية .
 oui : نعم — بالفرنسية .

النون

نجد النون بصيغته البدائية في الفارسية بمعنى (لا) في مثل (نا مرئي) أي لا مرئي ، غير مرئي ، ومثل :
 نا معقول ..

ولا يستغرب استعمال الضمير (نا) بمعنى النفي ولا سيما إذا تذكرنا ان ضمير الهمزة قد استعمل بمعنى الإيجاب في عدة لغات ، وبمعنى النفي في السكسونية وربما في غيرها أيضا . ويؤيد ذلك ان (ان) — بكسر فسكون — تعني النفي في العربية أيضا مثل : ان هو الا وحى يوحى .

ولها في الفارسية صيغة اخرى هي (نه) وتقابلها في العربية : ما ، ولا . والظاهر ان هاتين الصيغتين العربيتين متطورتان من صيغة (نا) التي اندرست في العربية بمعنى النفي وبقيت بصيغتها المديدة والقصيرة في الفارسية . وما يدل على عروبة (نه) انهم اشتقوا منها فعل (نهى نهيا) .

وهي تظهر في بعض الآريات بصيغة no و non ومن الجدير بالذكر ان العراقيين ينطقونها (مو — mü) في نفي الاسماء والضمائر مثل : مو آني ، مو احمد ، هو تعبان .. اي : ما انا ، ليس احمد ، ليس تعبان (أو غير تعبان) . وهم ينطقونها (ما) في نفي الانفعال مثل : ما يجي ، ما يخالف (اي لا بأس) .

التاء

بالإضافة الى المعاني الضميرية والاشارة التي نشأت من (تا) كالذي سبق ذكره ، نشأت منها من المعاني الاخرى صيغة (حتى) بمعنى : أيضا ، والى ، وكى ..

وان خامر قارئنا العزيز شيء من الريب في ان (حتى) ما هي الا (تا) قد فُتحت بالحاء فلا بد انه ليس من المغاربة ، لان (تا) بصيغتها الاولى هذه تعني بلفظة المغرب : الى ، وايضا ، مثل (حتى) . فهم يقولون : (تا تشوف) : الى ان ترى ، و (تا انا) : انا ايضا . غير ان الفرنس يستعملون (تا) بالمعنيين : الى ، وكى (للتعليل) .

(يا) في مثل قولهم : يا هذا يا هذا ، اي : اها هذا واهما هذا . وكذلك هي في الفارسية ، بنفس المعنى :
 يا اين يا اين .

وينطقها بعض العراقيين (لو) في مثل : تريد هذا لو هذا ؟

ومن واو العطف نشأت (الفاء) للترتيب والتعقيب ولا عجب في قلب الواو فاء ، فان (اين) التي ينطقها الكثيرون من العرب في دارجاتهم (وين) انقلب واوها فاء عند المصريين والمغاربة فنطقوها (فين) .

ولئن كانت الهمزة المكسورة (اي) تعني الايجاب مع القسم في مثل (اي والله) في الفصحى فانها تعني مجرد الايجاب (نعم) بالسورية والعراقية وغيرهما . لكنها تظهر بشكلها البدائي الاقدم في المصرية بمعنى نعم : آ ..

اما المغاربة فينطقونها : ايه (iyah)
 وربما منها نشأت الصيغة المصرية الاخرى : ايسوه . ونذكر بالمناسبة انها تنطق بالارمنية : آيو (ôyo) !

ومن الهمزة ايضا صيغت (اي) بفتح وسكون — وهي حرف التفسير ، و(اي) بتشديد الياء — ولها في المعجم عدة معان .

فاذا انتقلنا الى الآريات نجد للهمزة في بعضها صوراً كثيرة منها التالية :

- α : قط ، ابدأ — بالسكسونية (ومعان اخرى) .
 α : اداة تنكير تسبق الاسم — بالانكليزية .
 α : علامة تانيث — بالابيطالية (ولعلها مخففة من تاء التانيث العربية) .
 α : الى (حرف الجر) — بالابيطالية .
 α : عنده (اداة تزمين) — بالابيطالية والفرنسية .
 à : الى — بالفرنسية والابيطالية .
 ay : نعم — بالانكليزية .
 aio : يقول نعم — باللاتينية .
 ay : (اي) : يا (للنداء) — بالفارسية .
 aya : (آيا) : هل ؟ — بالفارسية .
 ayo : نعم — بالارمنية .
 e : واو العطف — بالابيطالية .
 e : اداة جمع الاناث — بالابيطالية .
 i : اداة جمع الذكور — بالابيطالية .
 o : اداة نداء — بالانكليزية والفرنسية .
 o : عندي — بالابيطالية .
 o : علامة تنكير تلحق الاسم — بالابيطالية .

أما الإنكليز فيستعملونها بالمعنيين المغربيين في صورتين : to (الى) ، و too (أيضا) .

وقد استعملت التاء في العربية بمعنى الموصولية، وعرفوها باللام فصارت **(التي)** (=الـ+تي) : ومنها : **اللتان ، واللتين ، واللتيا ، واللاتي** ..

* * *

ولنستعرض فيما يلي بعض الصيغ المتطورة من الضمائر، التي استعملت في غير معاني الضمائر واسماء الإشارة : لاعطاء فكرة اجمالية عن تعدد معانيها .

آن :

اراد غابي معربي من اهل الضمير **(آن)** ان يحدث صاحبه عن الوقت الحاضر فلم يجد غير هذه اللفظة التي كان يستعملها لمختلف المعاني ، فقال **(آن)** بمعنى : هذا الزمان . وقد استعملها بمعنى المكان الحاضر ايضا ، اي هذا المكان . لكنها تطورت بهذا المعنى الاخير فصارت لها بضع صور بقي لنا منها في العربية **(هنا)** ، و**(هنا)** من وزن كنا وحتى - بمعنى هناك . ووردت كذلك بصيغة **(هني)** بفتح الهاء وكسر النون . ولعلها قد كانت لها صيغ اخرى .

لكنها بقيت بصيغتها الاولى **(آن)** بمعنى الزمان ، ومنها **الآن والاولان** : وتظهر في الانكليزية كما قلنا بصيغة : now . وقد قلبوا في العربية فعل **(آن يئين)** فصار **(آني يأتي)** .

كذلك ابدل الاعرابون همزتها حاءا فصارت **(حان يحين)** ومنها **(الحين)** بفتح الحاء او كسرها ، وقد تخصص الفتح بمعنى الاجل . وتظهر في الانكليزية بصيغة when **(حينما)** وهي من السكونية : hawenne

ومن مخلفات عهود التخبط التطوري بقيت لنا صيغة **(آني)** - زنة حتى - بثلاث معان : الزمان **(حينما)** ، والمكان **(حيثما)** والنحو **(كيفما)** . وتستعمل كذلك للاستفهام بهذه المعاني : متى ، اين ، من اين ، كيف ؟ وصيغة **(آني)** هذه تكاد تندثر الآن لقلّة استعمال المعاصرين لها ، بدافع تجنب اللبس في قراءتها على الاخص .

ومن صورها **(آين)** للمكان خاصة ، و**(ايبان)** للزمان خاصة ، وقد كادت هذه الاخيرة تندرس هي الاخرى لشبوع صيغة **(متي)** .

وبينما استعمل الينيون القدامى صيغة **(آن)** في آخر الاسم للتعريف استعملها الإنكليز بنفسها an في اول الاسم للتكبير !

ونشأت منها في العربية صيغتها **(ان)** المشددة بفتح الهمزة وكسرها وصيغتا **(ان)** المخففة بفتح الهمزة وكسرها ايضا .

ونلاحظ على صيغة **(ان)** المكسورة الخفيفة ان لها معنيين : الشرطية والنفي . وتأتي **(ان)** هذه زائدا لغويا كقول شاعرهم : ما ان اتيت بشيء انت تكرهه .

ولضمير **(ان)** على مختلف وجوه نطقه حالات لغوية ونحوية كثيرة لا نريد التوغل فيها وانما نكتفي باستلفات النظر اليها والتوصية بمراجعتها في المعاجم للاطلاع على افعال التطور اللغوي .

ومن استعمالات **(آن)** ايضا انها الحقت بالاسم توجيها لمعناه احيانا لتكسبه معنى الفاعلية ، في مثل : عطشان ، انسان ، رحمان ، سلطان .. او معنى المصدرية في مثل شكران ، وبهتان ، وغفران ، وسلطان ايضا ..

وندرج فيما يلي بعض الصور التي تمصها ضمير **(آن)** في الآيات :

an : اداة تنكير تسبق الاسم المهموز - بالانكليزية ، كما تقدم .

en : في - بالفرنسية .

in : في - بالانكليزية .

in : اداة نفي الصفة ، وتذكرنا بنظيرتها العربية

(ان) ، ومنها im و un - بالانكليزية، وما

يقارب ذلك بالفرنسية (وهي تستعمل مثل:نا،

الفارسية) - مثل : inflexible : لا يثنى، و

impossible غير ممكن .

on : على (حرف الجر) - بالانكليزية

ian : اداة نسبة الى البلد مثل : Indian, Arabian

- بالانكليزية .

ien : للذكر و ienne للانثى : اداة نسبة

الى البلد بالفرنسية مثل : indien : هندي، و

indienne هندية .

one : واحد - بالانكليزية (وانلها : an آنا)

un : للذكر و une للانثى : اداة تنكير تسبق

الاسم، وتعني كذلك: واحد - بالفرنسية .

ذا :

اثلها كما قلنا (تا) التي تعني (هذي) . وقد اختلفت صيغتا (تا ، و قي) بالانثى وكذلك (ذي) ومنها (ذه) . اما صيغة (ذا) فاختصت بالذكر ، وقد بقيت صيغة جامدة بهذا المعنى .

لكنها تكون معرفة بمعنى صاحب ، اي انها تنطق (ذا . ذو . ذي) حسب موقعها من الاعراب مثل : ذا النون . وذو النون ، وذي النون . وهي تطالعنا نسي الفرنسية بصيغ : des, du, de بمعنى الاضافة ايضا لكن بعكس المعنى . اي ان (ذا يزن) تعني في العربية صاحب يزن ، بينما Jeanne d'Arc تعني في الفرنسية : جان التابعة لآرك ، اي ان (آرك) هو (صاحب جان) .

وقد انثوا (ذا) فصارت (ذات) وجمعها (ذوات) ، غير ان المثنى يأتي شاذا بصيغة (ذواتان) وكأنه تنثية للجمع ، بدلا من (ذاتان) . ومنها الاية : ذواتا انسان .

(ذات) هذه استعملوها ايضا كلمة واحدة بذاتها وتائها ، اي باعتبار التاء جزءا منها لا اداة تنثية . فصارت بهذا الاستعمال تعني النفس او الجوهري مثل : ذات الشيء ، ومنها (الذوات) باصطلاح المتأخرين : اعيان الناس والشخصيات البارزة فيهم . غير ان تنثيتها (ذاتان) ، اي على القياس .

وقد استعملوا (ذو) بمعنى الموصولية ومنها القول المشهور : ويثري ذو حفرت وذو طويت . وليراجع القارئ الكريم تفصيلات معاني (ذو) واستعمالاتها في المعجم . لكننا نكتفي هنا بالقول ان العرب عرفوها باللام فنشأت : الذي (= ال + ذي) . والاغلب انهم تالوا ايضا (الذا ، والذو) اول الامر ، ثم اهلست هاتان الصيغتان . وصارت (الذي) تجعب على (الذين) في حالات الاعراب جميعها ، اما (الذون) فلم يأتنا منها في المأثورات الجاهلية الا شذرات قليلة عدوها شاذة ، من لغة : نحن الذون صبوحوا الصباحا .

وتظهر (ذي) بصيغة (si) بمعنى (بلى) في الفرنسية ، وبمعنى (تعم) في الإيطالية .

وإما (إذا) فهي في الفرنسية (si) أيضا ، وفي الإيطالية (se) ، وفي التركية (ايسه - ise)

وإما في الانكليزية فبالاضافة الى صيغ الضمائر والاشارة التي وجدناها آنفا وصيغة (the) بمعنى لام التعريف ، نجد صورة though و although ولو .

انت :

بالاضافة الى ظهور هذه الصيغة في العربية بالمعاني الضميرية التي رأيناها ، وفي الفارسية بمعنى الضمير واداة التزمين والتكئين بصيغة (آند) ، وفي الفرنسية اداة تكئين بصيغة (sont) واداة تزمين بصيغة (ont) وضميرا متصلا بصيغة (ent) . نجدها في الآريات بمعان اخرى . منها :

and : حرف العطف — بالانكليزية .

ante : اداة تسبق الاسم بمعنى قبل او سابق

مثل : antediluvian قبل الطوفان ، و antecedent : سلف ، سالف — بالانكليزية والفرنسية . وهي من اللاتينية .

anti : اداة تسبق الاسم بمعنى الضد والمعاكس مثل antidote ضد السم (= ترياق) — بالانكليزية والفرنسية . وهي من اللاتينية ايضا .

ختام :

هذا قليل حقا من كثير جدا .

فعلى الرغم مما جاء في حديثنا هذا من تفضيلات لعل القارئ وجدها مسئمة ، وشواهد لا بد انه رآها كثيرة — نؤكد له اننا اهلنا تفصيلات ومقارنات وضمائر والمفاظ من مولدات الضمائر كثيرة اخرى .. اما رغبة في تخفيف الوطأة عن قارئنا واما لتعذر عرضها دون ما ينبغي لها من شرح وبرهان مما يأتي دوره من الحديث في آخره .

ولايضاح هذه النقطة نقول اننا تكلمنا على (الضمير العام) مثلا في اول البحث لكي تتمكن من فهم ما سيليه من الامور القائمة عليه .

لكننا لم نستشهد من الضمائر العامة الا بالهزة والا بالقليل من حالاتها . وتركنا الباقي الكثير من الشواهد اضطرارا لاننا لم نكن قد تقدمنا بعد في البحث الى الحد الذي يمكننا من فهمها وقبولها وهضمها . فمن اجل ذلك جاء كلامنا عن الضمير العام مبسرا ، هزيلا . وقرس على ذلك .

اما حين ثبت دعائم دراسة الضمائر على هذه الطريقة ، ويقتنع الباحثون اللغويون بها ، فسيتمكن الدخول في الموضوع راسا دون اضاعه وقت او كلام في البرهنة ومحاولة الاقتناع ، كالذي فعلنا من السير مع صديقنا القارئ يدا بيد وخطوة بخطوة — مما تنتضيه جدة الموضوع على القارئ والكاتب جميعا .

المعضلات التي لا صلة لها بالضمائر . لان ما طرأ على الضمائر من تطورات وما رافقها من ملابس وما تسرب منها مع الهجرات البشرية الى مختلف اللغات في مختلف الجهات - ينطبق على اللغة كلها ، ومن ثم ينبر لنا نهجا جديدا في البحث اللغوي عامة ويساعدنا على تصحيح نهج قديمة .

لقد توفر اللغويون من عرب ومستعربين قديما ، ومشرقين حديثا ، على دراسة العربية وافنوا اعمارا في اماسة الاقنعة عن اسرارها . وعلى الرغم من النتائج القيمة التي ظفروا بها قديما وحديثا ، صمدت امامهم في العربية وغيرها طلاسم عنيدة استعصت على كل محاولة : التنوين ، التعريف ، الاعراب ، الجمع ، التركيب .. وامثالها من الموضوعات التي حوموا حولها ما حوموا ، فاقتربوا من حقيقتها حينما وابتعدوا حينما ، ولم يصلوا ابدا .

فعلهم منذ اليوم بالضمائر . انها مفتاح الكثير من الافعال اللغوية . اما (الترسيس) فهو من اللغة بابها الكبير .

وكما صنفوا الكتب في العربية عن (الحروف) سوف يصنفون الكتب في العربية وغيرها عن(الضمائر) وسيجدون في العربية وغيرها عددا كبيرا من الموصولات والحروف والكواسع والرواسن ومختلف الروابط والادوات والاشتقاقات .. ترجع في اثلها البعيد او القريب الى الضمائر البدائية .. التي نبقت بذرتها الاولى وازدهرت في الغابة المعربية .

(نزول المغرب العربي) - عبد الحق فاضل

ونود ان نسجل بهذه المناسبة ان هذه التفسيرات والتخرجات التي مرت بنا انما ازجيناها على انها بعض الاحتمالات الممكنة ، لا على انها فيصل الخطاب .

ان الذي اردنا اليه بالدرجة الاولى هو ان نبسط طريقة للبحث لا ان نقرر حقائق نهائية لا تقبل جدالا . ذلك اننا ادرجنا من الاحتمالات المتعددة التي تتراحم على المخيلة في كل مرحلة من مراحل البحث ما تراءى لنا اهم واقوم او اقرب الى جادة المنطق من سواه .

واننا لندعو اخانا القارئ الى التمعن في هذه الضمائر وحالاتها وتفاعلاتها ، ونحن واثقون انه واجد بنفسه احتمالات اخرى ، ولعل بعضها اقرب الى السداد من بعض هاته الاحتمالات والاستنباطات التي ستفاتها . وما نقول هذا مجاملة للقارئ لاننا في الواقع كثيرا ما نصح بعض آرائنا حين تعمن لنا افكار اخرى ، او نطلع من الشواهد او الحقائق على جديد ، او نتذكر من الامر منسيا .

غير ان الذي مر بنا - على اختصاره ، بنظرنا - كان كافيا لان يرينا كيف ان دراسة الضمائر قادرة على تغيير وجه اللغة واعطائها ملامح جديدة تثير الدهشة حقا .

انها تعزق ارض اللغة عزقا ، وتبتعث من احشائها ما لم يكن متوقعا من دفائن ومجبولات .

ولا تتف دراسة الضمائر عند اهميتها الذاتية هذه ، فان لها كذلك لاهية مفتاحية في الدراسات اللغوية عموما ، فهي خليفة ان تعيننا حتى على حل بعض